سلسلة الاسفار العربية
٤

الرحلة التنوخية
رحلة عز الدين التنوخي
من الزرقاء الى القريات



جمع وتحقيق
الدكتور يحيى عبد الرؤوف جبر

الرحلة التنوخية

جمع وتحقيق
د. يحيى عبدالرؤوف جبر

الطبعة الاولى ١٩٨٥

الرحـــلة التنوخية

رحـلة عـز الـديـن آل عـلـم الـدين التنوخي هاربا من بـطـش الاتحـاديين الـطورانيين لاجئا الى البادية التي طالما كـانـت ردءا للـعـرب وحـصناهم، من الزرقاء الأردنية الى مـنـطـقـة الـقـر يـات السعودية، وذلك ابان الحرب العالمية الأولى.

الاهـــــداء

الى كل من جاب البوادي العربية حبا في العرب ولغتهم، ابتداء من رواة اللغة الأوائل، مرورا بعز الدين التنوخي وغيرهم. وليس الى الذين كان تطوافهم تجسسا وتزو يرا للحقائق، وخدمة للاستعمار بأنواعه.

تقـــديم

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على رسوله الأكرم محمد بن عبد الله عليه صلاة الله وسلامه و بعد.

فهذا كتاب جمعناه نصوصا منشورة في أعداد مجلة لم تعد تصدر منذ حين، فقد كانت البداية عندما كنت أعد حصة اذاعية، فوقفت في مجلة المقتطف على نص من رحلة التنوخي تحت عنوان «في بادية الشام» وقد ذيل بعبارة «للبحث صلة»، فنقبت في أعداد المجلة السابقة واللاحقة عن صلته، فاذا هي صلات، فسارعت الى تصو يرها جميعا دون أن أقرأها قراءة تدقيق.

ثم عدت الى هذه النصوص أثناء البحث عن مز يد من المعلومات عن البلدان الأردنية والفلسطينية كمادة لكتاب «معجم البلدان الأردنية والفلسطينية» الذي أرجو ان يكون في متناول القراء والدارسين قبل ربيع هذا العام، فوجدت أن النصوص جديرة بالنشر، ليس إكراما لمؤلفها، أو تقديرا لجهوده في مجال خدمة العربية وتراثها وحسب، ولكن لذاتها أيضا، حيث تقدم تعريفا بكثير من المسائل والمواقع في الجنوب الشرقي من الأردن، والشمال السعودي.

وكانت أولى الخطوات عقب الجمع القراءة المتأنية لتحقيق بعض المعلومات، وتصويب بعض الأخطاء المطبعية، وتحديد ما هو بحاجة الى تنوير وتوضيح، أو رده الى مصادره مع توثيقه بذكر موقعه منها.

وقد قدمت للنصوص بتعريف بالرحلة وأهدافها والأسباب التي حدت بالرجل للقيام بها، و بالنهج الذي تقفاه التنوخي في سرد الأحداث، كما بوبت مادتها على نحو يسهل عملية الاستفادة منها، ذلك اضافة الى ما جاءت عليه النصوص من ترتيب وتقسيم. كما عرفت بالموضوعات التي طرقها مما له علاقة بالبادية والبدو، بنفس المؤرخ والعارف بالأبعاد الحضارية لمجتمع البادية وتراث العرب.

وقد ذيلنا معظم الصفحات بهوامش أوضحنا فيها الغامض والمشتبه في المتن، وربما وردت عبارة «هامش من الأصل» في بعض المواقع، وهي اشارة الى الحواشي التي كان التنوخي قد ذيل بها مادته الأصلية.

وقد أشرنا لدى ابتداء كل نص من نصوص الرحلة الى العدد الذي نشر فيه من مجلة المقتطف، وشهره وسنته، والصفحات التي تضمنته، ذلك ليسهل الرجوع اليه عند الرغبة في التحقق.

كما ذيلت الكتاب بثلاثة فهارس: واحد للبلدان والمواضع، والثاني للأعلام من القبائل والأقوام والأفراد الذين ورد ذكرهم فيه، والثالث ذكرت فيه الألفاظ الاجتماعية والحضارية، ثم جئت بثبت بمحتويات الكتاب.

وأخيرا نأمل أن نكون قد وفقنا في اخراج هذه النصوص وتحقيقها والتعليق عليها، لينتفع بها القراء والباحثون، وأن نكون قد نهضنا بحق عز الدين التنوخي المحقق والعالم، رحمه الله، ووفقنا لما يحبه و يرضاه.. انه سميع عليم.

عمان في ١٧ ربيع الثاني سنة ١٤٠٥ هـ
الموافق ١٠ كانون الثاني سنة ١٩٨٥ م

عز الدين التنوخي في سطور

هو عز الدين آل علم الدين التنوخي الشهير بشيخ السروجية. ولد ــ رحمه الله ــ سنة ١٨٨٩م، بدمشق، وتوفي فيها صباح يوم الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٦م، بعد حياة حافلة بالانتاج والعطاء.

وكان قد التحق بالمدرسة الابتدائية السباهية بدمشق، حيث ختم القرآن الكريم، ودرس مبادىء العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية، وذلك في المدرسة الرشيدية ــ الابتدائية والعالية، ثم انتقل بعد نيل الشهادة الرسمية التركية الى مدرسة الفرير الفرنسية، ثم ذهب الى مصر وطلب العلم في الجامع الأزهر، ثم ذهب الى فرنسة مع البعثة العلمية الأولى الدمشقية[١].

وقد مكث في فرنسة ثلاث سنوات في مدرسة زراعية وبعد عودته عين ببيروت معلما للزراعة في مركزها الزراعي، ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى دعي لخدمة العلم، وعندما شعر بسوء نية المتنفذين الأتراك، وعزمهم على الغدر بشباب العرب والتخلص منهم، فر من الجيش التركي بحلب (الشهباء)، والتحق بالثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين، وما رحلته هذه التي نقدمها للقاريء العربي.. وللدارس، الا ترجمة لما لاقاه في طريقه من الزرقاء الى القريات، حيث كان في طريقه من الزرقاء فمكة المكرمة، ثم عاد الى دمشق بعد أن دخلها الجيش العربي بقيادة فيصل بن الحسين.

وقد تقلب عز الدين التنوخي في كثير من المناصب، فمن معلم للزراعة ببيروت، الى جندي أو ضابط بالجيش التركي، الى وزير للزراعة في الحكومة الأولى للثورة العربية الكبرى. كما كان عضوا في مجلس المعارف الذي ألفته وزارة المعارف بدمشق، وقد تحول هذا المجلس الى المجمع العلمي العربي، وبعد العدوان الفرنسي واحتلال دمشق، هاجر الى العراق، وعين أستاذا للأدب العربي في دار المعلمين الأولى، ثم دار المعلمين العالية ببغداد.

ثم عاد الى دمشق فعين أمينا لسر المجمع العلمي العربي وأشرف على اصدار مجلة المجمع زمنا، ثم عين مدرسا للأدب العربي في بعض المدارس الثانوية، فمفتشاً للغة العربية، فمديرا

---

١ ــ جل هذه الترجمة هو مما نشرته مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق العدد ٤١ سنة ١٩٦٦م ص ٥٣٨ ــ ٥٤١ في تأبينه.

لمعارف محافظة السويداء، فأستاذا في كلية الآداب بجامعة دمشق، فنائبا لرئيس مجمع اللغة العربية، واستمر في هذا المنصب الى أن توفي ــ رحمه الله.

وعز الدين التنوخي من الأوائل الذين أسسوا هذا المجمع، وقد عمل جاهدا في رفع شأنه ووفرة انتاجه. وقد كان رحمه الله حجة في اللغة العربية وقواعدها وآدابها، يرجع اليه في حل معضلاتها، و يستفتى عن غوامضها، لم يضن بعلمه على مستفسر أو مستفيد، وكان معلما حيثما وجد، في المدرسة، أو في داره، أو مقر عمله.

وكان مسلكه في حياته مسلك السلف الصالح، يعمل مخلصا لربه وأمته، زاهدا بالشهرة، متجنبا آفاتها، وقد انشأ على مقاعد التدريس جيلا عاملا يشيد أبدا بفضله، و يترنم بذكره العاطر.

مؤلفـــاته

١ ــ الفتح المبين في شرح عينية ابن سينا الرئيس.

٢ ــ دروس في صناعة الانشاء.

٣ ــ مبادىء الفيزياء (جزآن).

٤ ــ قلب الطفل (جزآن).

٥ ــ تحقيق كتاب المنتقى من اخبار الأصمعي. للامام الربعي.

٦ ــ تحقيق تكملة اصلاح ما تغلط به العامة.

٧ ــ تحقيق بحر العوام في ما اصاب به العوام.

٨ ــ شرح (الايضاح) للقزويني.

٩ ــ احياء العروض.

١٠ــ تحقيق كتاب الابدال لأبي الطيب اللغوي (جزآن).

١١ــ تحقيق كتاب المثنى. لأبي الطيب اللغوي.

١٢ــ تحقيق كتاب الاتباع لأبي الطيب اللغوي.

١٣ــ تحقيق كتاب (مقدمة في النحو) خلف الأحمر.

١٤ــ مشاركة في وضع المعجم العسكري بقسميه الفرنسي ــ العربي، والانجليزي العربي.

١٥ــ الرحلة التنوخية (في بادية الشام) وهو الكتاب الذي بين يديك.

١٦ــ الى جانب عدد كبير من المقالات والدراسات التي نشرها في المجلات المختلفة، وفي مقدمتها مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. رحمه الله، وجزاه عنا وعن العربية وتراثها جزاء حسنا.

هــذه الرحلــة

حدثت هذه الرحلة في الفترة الواقعة ما بين أواخر شوال سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) وأوائل سنة ١٣٣٤هـ (١٩١٦م)، و يبدو أنها دونت أثناء ذلك، ثم نشرت اعتبارا من مايو أيار سنة ١٩١٧م، ذلك بدليل قوله عن مؤلفات ابن تيمية أنه كتب بأسمائها جريدة «ضاعت بضياع رحلتي المطولة».

وكانت نقطة الانطلاق من حلب الى جبل الشيخ ثم الى بلدة الزرقاء الأردنية، ومنها توجه مع صاحبه جلال الدين البخاري شرقا الى الهزيم، فالقريات دومة الجندل والقارة، والطوير وسكاكة، مرورا بالأزرق والأدعم وأو يسط وميقوع وغيرها من المواضع. و يبدو أنها انتهت الى البصرة، ولكن الرحلة مبتورة كما يلاحظ، ذلك أن آخر الحلقات التي عثرنا عليها ذيلت بعبارة «للرحلة صلة» ولم نجد تلك الصلة.

وقد دفعه الى القيام بهذه الرحلة عاملان، أحدهما يذكره صراحة، وهو الهرب من الجبروت الطوراني الذي كان يلاحقه هو وغيره من أحرار العرب للفتك بهم. والثاني، وهو ما تبرزه طريقة سرده للأحداث التي مرت به، وهو الدعوة للتمرد والثورة على الأتراك، ويمكن استيضاح ذلك في معرض حديثه عن الدين في البادية، كقوله عن العرب أجداد أصدقائه البدو: «وكيف قلب لهم اليوم بتحكم الأتراك مجن الدهر، وعضتهم أنياب العيلة والفقر.. وهلم جرا من العبارات التي كان يبدو عليهم التأثر بها، والتحسر، وتثير من جوانحهم كوامن الغضب على القوم الظالمين».

ولم يكتف عز الدين التنوخي بسرد الوقائع والأحداث، ولكنه يتحين الفرص ليعرض شيئا من معارفه المتنوعة، كيف لا وهو الأستاذ اللغوي المحقق المشهور، ومن قبيل ذلك التعريف ببعض الأعراف والتقاليد البدوية كالتبدي (التشريق) والبوقة، والتضامن البدوي والنخوة العربية، وغير ذلك من الأمور.

كما أنه عرف بالقبائل التي مر بها أو نزل ضيفا بساحة شيوخها أو غيرهم من أفرادها، و يقدم معلومات مستقاة من رجالها أو من المصادر المختلفة، توضح انتماءها وعددها ومذهبها ونحو ذلك مما له ارتباط بكل قبيلة

و يوافق عز الدين التنوخي في آرائه في البدو رأي ابن خلدون، ونعتقد أن كليهما جائر في حكمه، فاذا كان البدو آفة الحضارة المادية فان ذلك يستدعي أن يعاد النظر في مدلول كلمتي «آفة» و«حضارة» ومن هو الذي يحدد هذا المدلول؟ وهل غاية الانسان في هذا الكون ان «يتحضر» ماديا وحسب؟ فان كان الأمر كذلك فما الذي يمنع البدو من الاستقرار؟ وما الذي حدا بالقطامي التغلبي الى القول:

فمن تكن الحضارة أعجبته   فأي رجال بادية ترانا

وما الذي حدا بميسون بنت بحدل الكلبية لقول أبياتها المشهورة، وهي زوج الملك الأموي معاوية، في قصوره وجنانه:

لبيت تخفق الأرياح فيه   أحب الي من قصر منيف
وكلب ينبح الطراق دوني   أحب الي من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عيني   أحب الى من لبس الشفوف

وما الذي حدا بالشاعر البدوي المعاصر الى القول:

بارك الله في فلاح تبدوى   ولا بارك في بدوي تفلح

***

وجدير بالذكر أن هذا الكتاب لا يقدم نصا في أدب الرحلات وحسب، ولكنه يؤرخ لفترة وجيزة ومكان محدود، فترة شهدت قيام الحرب العالمية الأولى ومشاركة تركية لألمانية في هذه الحرب، وشهدت الارهاصات والمقدمات الكبيرة لقيام الثورة العربية الكبرى التي فجرها الشريف حسين. والتي كان من أبرز أسبابها الاضطهاد الطوراني لأحرار العرب من أمثال عز الدين التنوخي وأصحابه الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب.

كما شهدت مزيدا من الصراع، ولا سيا في شمال جزيرة العرب، حين أخذت الدولة السعودية الفتية تبسط نفوذها على تلك المنطقة مصطدمة مع آل الرشيد، الذين سرعان ما وضع السعوديون حدا لأمارتهم عقب موقعة «روضة مهنا».

ويحدثنا عز الدين التنوخي في رحلته عن ضعف الأثر الديني في نفوس أفراد بعض القبائل التي أقام فيها عند تنقله في منطقة القريات، ولكنه يشير في الوقت نفسه الى أثر دعوة الاصلاح التي نهض بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعم من آل سعود ــ في تهذيب سلوكهم وتحريك الوازع الديني السمح في نفوسهم، هم وغيرهم من عرب الجزيرة وسواها.

***

وقد اعتمد التنوخي في معلوماته عن بعض البلدان والمواقع على معجمي ياقوت والبكري وغيرهما من مصادر اللغة والأدب، ومن الملاحظ أيضا أنه كان يحيل الى مواضع محددة بالاسم والرقم عند الاقتباس من بعض المصادر، وهذا دليل أمانته العلمية وتوثيقه.

وبعد، فنحن بصدد نص في الحضارة يقدمه رجل مزج فيه بين ما خبرت به الكتب وبين ما ثقفه بالتجربة والمشاهدة، رجل تسعى وعين تبصر، وأذن تسمع، وعقل يدبج، وقلم يرقم.

وقد كان هذا النص مشتتا في عدد من الكتب لا يصل اليه أحد الا احتمالا، ولا يستفاد منه الا لماما، فرأينا أن نقوم بجمعه وتحقيقه ونشره، ليكون في متناول القاريء العربي، باحثا كان أو مثقفا، ولنلقي بذلك حزمة من الضوء على تلك الفترة القصيرة، وتلك المنطقة من بادية الشام، في الشمال السعودي، والجنوب الشرقي الأردني وهي منطقة صغيرة، ولكنها ذات تاريخ عريق تشهد به آثارها وأخبارها.

في بادية الشام *

هالتني وأنا في الشهباء[١]، من الجبروت الجنكيزي[٢] هَوْلٌ أوجست منها في نفسي خيفة، واستشعرت من شرورها المستطيرة في العرب خشية، ولما أيقنت بأن حكومة الترك الطورانية قد عزمت عزما شديدا أن تقضي على الروح القومية العربية قضاء مبرما في طامة هذه الحرب الكبرى، وذلك بالقضاء على أعيان العرب وفتيان قحطان. وعلمت بعد ذلك أنهم أمروا زبانيتهم بالقبض علي، فاستجرت من المعاطب بالسباسب ومن العوادي بالبوادي، ولذت من عقاب العجزة الأشرار باجتياز عقاب المفاوز والأوعار. وما زلت لابسا قبعة الاخفاء متواريا عن العيون والرقباء، يوما بجبل الشيخ او جبل الثلج على رأي حسان[٣]، و يوما على متون الصافنات الجياد نقطع سهول حوران.

ومن غرائب الاتفاق التقائي بصديقي جلال الدين البخاري[٤] فارا من عدوان الأتراك، فوافقني ورافقني حتى هبطنا البلقاء (مؤاب)، وألقينا عصا التسيار او الفرار في عرب بني صخر المخيمين قرب قرية الزرقاء، وحللنا ضيفين مستجيرين على شاهر الخريشة ابن عم حديثة شيخ هؤلاء الأعراب، ولم ننزل في سرادق الشيخ لسفره الى دمشق لاستلام الصرة، وهي الأتاوة التي يتقاضاها البدو مسانهة[٥] من الترك.

بنو صخر

من الأعراب التي اتخذت البلقاء منازلها، وهم ينقسمون الى قسمين: الخرشان والفائز، فالخرشان نسبة لخريشة الأب الأول، و يبلغ عددهم نحو (٥٠٠٠) نفس، لا عيش لهم الا بإبلهم التي ينقلون عليها الحمول بالأجرة صيفا: في عجلون وحوران، ويحملونها عند تغريبهم وعودتهم من البادية ملحا من قريات الملح الواقعة في فاتحة وادي السرحان من جهة الشام.

---

* عدد مايو سنة ١٩١٧ ص ٤٤٥ ــ ٤٤٨.

١ ــ يعني مدينة حلب.

٢ ــ التركي، وبالتحديد الطوعاني، ونسبهم لجنكيز التتري، لانهم جميعا من الشعوب التركية.

٣ ــ يريد قوله (في شرح دوانه ص ١٦٤).

من دون بصرى وخلفها جبل م   الثلج عليه السحاب كالقدد

٤ ــ في الأصل النجاري، ولكنه عاد فضبطه في ما بعد «البخاري».

٥ ــ سنويا. نقول سنهي وسنوي كما نقول شفهي وشفوي

و يعيشون أيضا بالغزو المستديم، وهو حرفة الأعراب من القديم، وأكثر غزوهم (لمنطقة حوران) وقد شاهدت بعضهم يعيشون حول قرى الشراكسة، فيرعون مراعيهم و يقطعون من مغارسهم أشجار الصفصاف يتخذون منها أعمدة لخيامهم، وأوتادا.

وأقنعني الاختبار الطويل بصدق ما ذكره مونتسكيو العرب ابن خلدون عن هؤلاء العرب، وأنه لا يريد بهم الا الأعراب (١)»، وإن التبس هذا على كثير من الباحثين فأساءوا الظن بفيلسوفهم العربي الكبير. فان من جاب جزيرة العرب اليوم وعاشر أعرابها وسبر روحهم البدوية ــ علم علما لا يشوبه ريب أن الحضرمي (٢)» لا يقصد بالعرب ــ كما ذكرت ــ سوى أهل الوبر لا المدر(٣)، ومن اتخذوا بيوتهم من الشعر لا الحجر. وقد أعدت مطالعة مقدمته مرارا وأنا ملابسهم في ظعنهم وحلهم وغزوهم ورعيهم وايرادهم واصدارهم (٤)»، فكنت كلما زدت بالبادية اقامة زدت بابن خلدون إعجابا وإيقانا بأنه أعلم الناس بالبدو، أو، على تعبيره أحيانا في مقدمته، بالعرب، ومن يقرأ الفصل الذي كتبه في «أن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب»، وقوله فيه: «والخشب أيضا إنما حاجاتهم اليه ليعمروا به خيامهم، و يتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، فيخربون السقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران» ــ يشهد بأن قوله هذا يحاكي قولي: أن (البدو) آفة الزراعة اليوم في البلقاء (٥)».

ولم تختلف أحوال العرب في معائشهم وعوائدهم عن زمن ابن خلدون الا اختلافا يسيرا نشأ عن اختلاف أحوال المدن. وعلاقة أهل البداوة بأهل الحضارة مستحكمة العرى في جميع الأزمان.

هؤلاء هم الخرشان، وأما أبناء عمهم الفائز، فعددهم نحو ١٥ ألفا يرأسهم شيخهم فواز، وهو رجل منور الفكر لدراسته في مدرسة العشائر المؤسسة عهد عبد الحميد، شديد النزعة القومية، معروف بين إخوانه بأخلاقه الكريمة ولا يبعد أن يلعب دوراً خطيراً على مسرح الثورة العربية.

---

١ ــ ما يزال المصريون يطلقون على الأعراب اسم «العرب». ولا شك في أن ابن خلدون والمصريين يصدران في هذه التسمية عن مصدر واحد.

٢ ــ يعني ابن خلدون.

٣ ــ يعني البدو والحضر. والمدر هو الطين يبنون به.

٤ ــ الايراد الى الماء والاصدار عنه.

٥ ــ لا شك ان في هذا الكلام تجنيا على الأعراب ومبالغة تابع فيها ابن خلدون. فهم، وان فعلوا، لا يفعلون ذلك رغبة في الفساد والعيث، ولكن ضرورات الحياة تسوقهم الى ذلك سوقا.

بنو صخر، و يقال لهم الصخور أيضا، ومنهم قسم يسكنون اليوم غور بيسان، حجازيو الأصل لادعائهم القرشية، والذي ذكره القلقشندي في صبح الأعشى [١]، وفي نهاية الأرب في أخبار العرب [٢]، أنهم من القحطانية، بطن من جذام مساكنهم بلاد الكرك من الشام، وتابعه الحمداني على ذلك أيضا، وهو أضرب في مفاصل الصواب.

وقد أقمت والمرحوم رفيقي [٣] بين ظهراني هؤلاء الصخور شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٢. وفي الخامس من ذي الحجة انتقلنا لعرب السرحان الذين عزموا على التبدي، وهو التشريق بلغة البدو.

نزلنا في مضرب الشيخ خنيفس (تصغير خنفس) أحد شيوخ السرحان، وكان نازلاً بعربه على بعد مرحلة صغيرة من الزرقاء شرقاً، في مراح يعرف بالأدعم، وهذا الاسم لم يذكره ياقوت، ومعنى الأدعم في القاموس: الفرس الذي في صدره أو لبته بياض[٤]، وكأنه كان في هذا المنزل بقعة كلسية بيضاء فسمي بالأدعم تشبيها.

على الحضري المتبدي، سيما إن كان شريداً طريداً، أن يتجلبب في البادية بجلباب الفقر والإعدام، وأن يعمل بنصيحة ذلك الرحالة المجرب القائل: اذا سافرت فأخف ذهابك وذهبك ومذهبك. ولهذا رأيت ورفيقي أن نطلع الشيخ على عوزنا لما سلبه منا بعض عديمي المروءة، وباطلاعه على حالنا المؤلمة تأثر، ووعدنا بمساعدته إيانا بقدر ما في وسعه، وقد بر بوعده، جزي خيراً.

وعدد عرب السرحان نحو خمسة آلاف، وبهم يسمى وادي السرحان[٥] الآتي ذكره، ومنهم من توطن الجوف (دومة الجندل) وسكاكة، ومن شيوخهم ابن بالي وابن رافع، وحقه

---

١ ــ انظر معجم القبائل ٦٣٤/٢ عنه.

٢ ــ ذكر ابن خلدون ٢٥٤/٢ انهم من طيء.

٣ ــ هو جلال الدين البخاري، وهناك في الأصل هامش يقول: لأنه ألقي عليه القبض بعد ذلك، وشنق، رحمة الله عليه، في دمشق، بريئا مظلوما.

٤ ــ اللبة موضع العقد من أعلى الصدر.

٥ ــ وكان يسمى قديما وادي الأزرق، ولما نزله السراحين (من كلب بن وبرة) سمي بهم.

وقد ذكر الدكتور كاسكل انه كان يعرف باسم رأس السر. والسرحان في اللغة الذئب، ومنه قول امريء القيس في فرسه:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة　　وارخاء سرحان وتقريب تتفل

انظر للمعلومات المكانية جغرافية الجزيرة العربية لمصطفى الدباغ ص ١٧ والمعجم الجغرافي لشمال المملكة العربية السعودية ١٣٣٦/٣، ١٣٣٧.

أن يدعى ابن خافض، لأنه باق [١]، أي سلب ضيوفه المرحومين عبد الغني العريسي، والأمير عارف الشهابي، وعمر حمد، وتوفيق البساط، و باق أيضا شيخ «جباتا الخشب» وماجاورها في جبل الشيخ (حرمون)، وهو الشهم الكريم والعربي الصميم أحمد مريود، رعاه الله.

ومن عادة البدو إذا شرقوا [٢]، أن يُغَلِّسُوا في التحمل، وهكذا لم يكد الصبح يتنفس حتى عُكمت الأحمال، وشالت الجمال الأثقال، وشرقنا صباح الجمعة من الأدعم، وكنا نقطع يومياً مرحلة، ست أو سبع ساعات، بمعدل ٢٥ كيلومتراً.

وفي المرحلة الثانية جزنا بالأزرق، وهو اليوم خرابة بجانبها ماء ترده الأباعر، والأزرق هذا أحد قصور الأمويين التي كان ملوكهم ينزلونها زمن التشريق. فقد روى صاحب كتاب العيون والحدائق (ص ١٢٠) ان الوليد بن يزيد كان يستوطنه في البرية. وذكر الأصفهاني [٣]، في أغانيه انه كان ليزيد بن عبد الملك عدة قصور يتنقل اليها و يتصيد، كالزيزاء وفدين [٤]، والأزرق، والأغدف، والنجراء، وقصر الأبيض في الرحبة، وعلى هذا يكون الوليد اقتدى بسكنى الأزرق بأبيه، ومن يشابه أباه [٥] فما ظلم.

---

١ — البوقة في عرف البدو مخالفة قواعد المروءة البدوية المعروفة، وهي بمثابة خرق القانون في عرف المتمدنين. والبائق يعاقب في البادية عقابا صارما يشبه الحرم الكهنوتي، وهو لا يؤاكل ولا يجالس، ولا يسلم عليه، وهكذا نال ابن رافع جزاءه الشديد حتى رد الأسلاب، وأكد للعرب النازلين في الهزيم (وسيأتي ذكرهم) انه ظن الذين باقهم قوما، أي عدوا باصطلاحهم، وأراد بالقوم الدروزه لأنهم حينئذ كانوا قوما معادين. ولفظة بوقة اسم مرة من فعل عربي فصيح. قال في القاموس: (باق: جاء بالشر والخصومات. وفلان تعدى على انسان او هجم على قوم بغير اذنهم كانباق، والقوم، سرقهم) هامش في الأصل.

٢ — التشريق في عرف البدو هو الرحيل الى شرق بادية الشام أوائل الشتاء عند طلوع سهيل هربا من البرد، لقلة اثاثهم، وخفة سرابيلهم الواقية، ولأن المياه تكثر في هذا الفصل للأمطار، فتكثر موارد ابلهم مما يساعدهم على الانتجاع والارتياد، فاذا جاء الربيع اعشوشبت الأرض وأنبتت من كل زوج من البقول بهيج، فيكثر الرمث والروثة والشيح والقيصوم، فتسمن ابلهم وتغزر البانهم، وتنتج عشارهم على مهاد من الرمال وثير، مما لا يجدونه في أرياف الشام. ولا يزالون في البوادي متنقلين حتى يدهمهم الصيف بحماراته، و يتصوح النبت، و يتولى البادية الجدب، فيلوذون عندئذ بأرياف البلقاء وعجلون ومزارع الغوطة وحوران والجولان، وهذا ما يسمونه بالتغريب. (هامش في الأصل).
وحمارات الصيف عكس صبارات الشتاء وهما اشد اوقاتها حرا و بردا على الترتيب وتصوح البقل والنبت يبسه. ونتج العشار ولادة الابل والدواب. والسرابيل الملابس و بطلوع سهيل يبرد الزمان والعرب تقول: اذا طلع سهيل برد الليل وأدخل الخيل.

٣ — ٢٠١/١٨

٤ — الفدين هي المفرق الآن. والزيزاء ما يعرف اليوم باسم «زيزياء».

٥ — في الأصل «أبه».

وقال ياقوت: (١) «والأزرق ماء في طريق حاج الشام دون تيماء»، ولم يعين مقره، إذ بينه وبين تيماء مسافة (٦٠٠) كيلومتر(٢)، ومن الأزرق للهزيم مرحلتان قصيرتان، ومنه لبصرى مرحلة على الطريق الرومانية المستقيمة التي يرجح أنها كانت طريق عبد العزيز في خروجه على الوليد كما ذكره دوسو Dussaud وأما أنا، فلقد شرقت عملا بقول الشاعر:

وغرب، فالتغرب فيه خير   وشرق إن بريقك قد شرقنا.

ولعمري، لقد شرقت من فظائع التوارنيين أيما شرق، فشرقت مع السرحان معبرا عن لسان حالي بلسان مقالي هذا:

فان السرى والليل يقرس برده   وسيرى في البيداء معتسفا يومي
وذرع الفلا ما عشت في غربة النوى   وحيدا، فلا أكلي يطيب ولا نومي
لأفضل لي والله يا عاذلي من   مشاهدة التركي يقضي على قومي

ويدن هؤلاء العرب في التشريق قديم عهده، فقد كانوا أيام بني أمية يشرقون في بادية الشام في شتاء كل عام، وهو ما يسمونه بالتبدي (٣)، ولم يذكر ابن عساكر وصاحب الأغاني ملكاً أموياً إلا ذكرا تبديه، فكان خالد بن يزيد يسكن قصر فدين في البلقاء، وأظنه القصر الذي يجاوز اليوم عين الزرقاء، و يدعوه العرب قصر تبع(٤)، كعادتهم بنسبة كل بناء عبقري الى سليمان، كما فعلوا بنسبة بناء تدمر بالصفاح والعمد (٥)، و بنسبة الأبلق الفرد.(٦).

---

١ – معجم البلدان ١٦٨/١.

٢ – الرقم ساقط في الأصل، ولكنه استدرك فذكره في موضع لاحق.

٣ – الخروج الى البادية للاقامة فترة من الزمن.

٤ – بل هو المفرق.

٥ – يريد قول النابغة الذبياني (ديوانه ص٨٢).

فخيس الجن، إني قد أذنت لهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد.

قال ياقوت: «وأهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان».. وان كان هناك من يزعم ان الجن بنته له. (معجم البلدان ١٧/٢).

٦ – جاء في معجم البلدان ٧٦/١ «وقال الأعشى: وهو زعم ان سليمان بن داود هو الذي بنى الأبلق الفرد.. فقال:

بناه سليمان بن داود حقبة   له أزج عال وطي موثق

وهو حصن السموأل بن عادياء بتيماء.

وأخبرني بنو صخر أن بني هلال اجتازوا بهذا القصر وحاربوا ربه(١) أيام هجرتهم من الحجاز للمغرب، ومنعوه الماء، ولهذا القصر الصالح للسكنى اذا رمم، مناظر طبيعية سبتني محاسنها، وراعتني جداً كما راعت من قبلي خالد بن يزيد، وأولاد الخليفة عثمان. وفي الآثار عبرة لأولي الأفكار.

ذكرنا أن الوليد كان يتبدى إلى الأزرق، وكان يقطن الزيزاء والقسطل في البلقاء التي يلقبها العرب اليوم بذيل البادية، وكان معاوية يشتو بالصنبرة(٢) في الأردن، وبه اقتدى عبد الملك، إلا أنه كان بعد الصنبرة يقضي في الجابية شهر آذار، وكان يبلغ به التبدي أحياناً أن يصل دومة الجندل المسماة بالجوف اليوم، حيث كان له من واحتها الغناء متنزه جميل يحاكي متنزه الأمير نواف الشعلان حاكم دومة الجندل في يوم الناس هذا.

***

الهزيم(٣)

بعد أن خبت بنا المطايا مرحلتين قصيرتين من الأزرق(٤) بلغنا ضحى الثامن من ذي الحجة منازل الهزيم، وهو مشتق من الهزم، بالفتح والسكون، وهو ما أطمأن من الأرض، والهزيم بمعنى المفعول، أي المنزل المطمئن من الأرض، وهو في الواقع كذلك، مستوى الرقعة، ومبارك البقعة، والمراعي الطيبة حوله قاصرة(٥) ناضرة، وفيه من القلب(٦) المنقورة في الصخور الرملية ما يربي على العشرين، والصخور متكتلة، وهي المدعوة بمصطلح الجيولوجيين بالكونغلومريت، فوقها طبقة رملية ثخانة متر هي الأرض، فالصخور كالأرض التحتية في عرف الزراعيين.

---

١ ــ صاحبه.

٢ ــ في الغور قرب بيسان

٣ ــ بداية الحلقة الثانية، وقد نشرت في عدد يوليو سنة ١٩١٧ ص٣٣ ــ ٣٨.

٤ ــ ورد في هامش بالأصل «ذكرت في المقالة السابقة أن ياقوت لم يعين مقر الأزرق ولا بينه وبين تيماء مسافة.. كيلومتر. وكنت تركت في المقالة المخطوطة فراغاً لأحرر جهدي المقدار بمقياس المتري، ثم نسيت وقدمت للطبع قبل التحرير المقالة، فاستدركت ما فرطت بالأمس. والمسافة هي تقريباً ٦٠٠ كيلومتراً.

٥ ــ المرعى القاصر لغة ما قرب من الموارد (هامش في الأصل).

٦ ــ قال الأزهري: القليب عند العرب البئر العادية القديمة مطوية أو غير مطوية، والجمع قلب، مثل بريد وبرد. ويلفظه البدو اليوم الجليب. هامش في الأصل. قلت: والعادية القديمة نسبة الى قوم عاد. والمطوية هي التي بنيت أجوازه بالحجارة. وعرب نجد ومن والاهم يلفظون القاف جي في كثير من كلامهم.

وماء هذه القلب شروب غير بعيد الغور، وإنما يتراوح ما بين طول القامة والقناة[1]، ويمتزج بأبوال الإبل الواردة، فتعزف نفس الحضري عن شربه فيشربه مضطراً. وقد ورد ذكر الهزيم في معجم الحموي[2] بأنه موضع في قول عدي بن الرقاع حيث قال:

أخبر النفس إنما الناس كالعيـ ـدان ما بين ثابت وهشيم
من ديار غشيتها دارسات بين قارات ضاحك فالهزيم

وبين الهزيم ودمشق ما ينيف على ٢٠٠ كيلومتر، وفيه لبثنا يومين والثالث الأضحى، ويعلنون مساء عرفة يوم العيد بإطلاق الرصاص من كل صوب، وصباح عيد الأضحى يضحون كثيراً من الإبل، وتراهم يدعو بعضهم بعضا.

ومن عادة الفقراء هذا اليوم أن تأتي امرأة أحدهم بقدرها للبعير المضحى وتقطع منه قدر الحاجة وتطبخه أمام بيت رب الضحية، ولا تحمل قدرها الا نضيجا، وقد راجت في هذا اليوم سوقنا لإضطرارنا لإجابة دعوة كل من ضحى، فكنا احتياطاً من التنافين نأكل من كل ضحية نتفة، وإذا أكرمنا المضحي فبتقديم السنام المقطع، والسنام في نظر البدوي أسنى قيمة من فخذ الخروف الطري لدى الحضريين، وكان هؤلاء المضحون يطلبون منا قبل[3] غسل الأيدي من الطعام ان نقرأ لأرواح أمواتهم الفاتحة.

وما راقني في الهزيم إلا غناء الماتحين (المستقين بالدلو) الرخيم وهم يسقون إبلهم الخوامس (٤) الهيم، و يدعون هذا الغناء «الحدو»، وهو الحداء يحثون به النوق على الشرب، كما تحث به على السير. وقد ورثوا هذه العادة، ولا ريب، عن اجدادهم الذين كانوا يغنون لإبلهم حين المتح بأنواع الرجز، وهي الأبحر السهلة التي تناسب الحركة كالسير ونقل الأثقال والرقص والمتح والصراع والقراع، وذلك مما عابه الشعوبية على العرب. وقد أتى الجاحظ في الرد عليهم بفصل الخطاب. قال في صدر الجزء الثالث من البيان والتبيين: «وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر، ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه الى الكلام وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذي اليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا».

---

١ ــ الرمح.

٢ ــ ٥/٤٠٦.

٣ ــ في الأصل «منها».

٤ ــ الابل الخوامس التي ترد على خمس، أي كل خمسة أيام، والهيم العطاش. هامش في الأصل. قلت: الهيم جمع هيماء. قال تعالى «فشاربون شرب الهيم».

أقول، ومما يدل على أن الإمام الجاحظ يفل الحز بقوله، أني كنت أتنقل من قليب إلى قليب، وأسمع من الأقوال المرتجلة بين مديح وتشبيب ووصف إبل يغالون بمحبتها، ويبالغون بمدحها، ما تملأ به الدفاتر وتجف له المحابر، وما يهيج الطرب، ويبعث الوجد، ويثير في الماتحين النشاط،[1] ويشوق السامعين الى المتح. فلقد وددت أن أساعدهم في المتح، لأشارك الإبل في الإصغاء، والماتح في الحداء. وقد اختص البدو قديما المتح ببحر الرجز لسهولته وتناسبه مع حركة إلقاء الدلاء في البئر ونزعها، كما أنهم نظموا على هذا البحر الخفيف أراجيز الحداء، وبدو اليوم ينظمون أراجيز المتح على مجزوء الرجز المذيل. ومما استظهرته عن قلب المزيم قولهم:

يا مرحباً بالزوامل[2]   شيالات المحامل
يا مرحباً بابلنا   يا مبعدات منزلنا
يا مرحباً بابلنا   واللي بغينا شلنا
يا بو قرون المرس[3]   كل حبتين بفرس
يا مرحباً بالابل   يا مزوجات الخبل[4]

والبيت الأخير يدل على أن مهر نساء البدو الابل. وما يغنون به عند تحميل الأثقال ونقلها قولهم:

إيه يا شيال أنت   ياللي حيلك حيل البنت

واستعملت العرب الرجز لترقيص البنين والبنات، فقد روي أن شيخا من الأعراب تزوج جارية من رهطه، وطمع ان تلد له غلاما فولدت جارية فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوي الى غير بيتها، فر بخبائها بعد حول، فاذا بها ترقص بنيتها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا   يظل في البيت الذي يلينا

---

١ ــ سمعت التهاميين عند نقل «المعدل» وهو جذع سدرة أو عتمة (زيتونة برية) يسقفون عليه البيوت ــ يقولون وهم يحملونه بمشقة

أربعة شالوا امجمل   وامجمل ما شافهم

يطمطمون. وهم يتعاونون في ذلك الى حد بعيد.

٢ ــ الناقة والأتان.

٣ ــ نوع من الحبال

٤ ــ الأبله. وكان من عادة العرب قديما، والى عهد قريب أن يكون مهر نسائهم ابلا، ومن ذلك قديما تسمية النجوم التي تقع بين الدبران (حادي النجم) والنجم (الثريا) بقلاص النجم، حيث زعموا أن الدبران ساقها مهرا للثريا، وفي ذلك يقول شاعرهم:

أما ابن حوط فقد وفى بعدته   كما وفى بقلاص النجم حاديها.

غـضـبــان أن لا نـلـد الـبـنـيـنـا تـــالله مـــا ذلـــك في أيـــديـــنـــا
وانمـــا نـــأخـــذ مـــا اعطينــــا

فلما سمع الشيخ الأبيات مرحضرا [١] ، أي عاديا بفرسه، حتى ولج عليها الخباء، فقبلها وقبل بنيتها، وقال: ظلمتكما ورب الكعبة.

***

ثم في الحادي والعشرين من ذي الحجة عزمت وصديقي المرحوم جلال الدين علي [٢] استئناف التشريق واللحاق بشيخ الحويطات «عودة أبي تائه» قبل ان يبعد عنا كثيراً بتحوله عن مراحه ومخيمه لدى قليب «العقيلة» بجانب قرية «كاف» من قريات الملح، والمسافة بيننا نحو ثلاثين كيلومتراً.

وقد خرج الشيخ خنيفس خارج الحي لوداعنا، وأوصى قريبا له متوجها على راحلته وجهتنا، وأكد عليه التأكيد كله أن يريحنا بتناوب الامتطاء في دربنا الذي لقينا منه، لعمر الحق، نصباً. فقد سرنا مقدار ساعة ثم شرعنا في اجتياز سلسلة مستطيلة من الهضاب والآكام، وهي مضبعة (مأوى للضباع) مخيفة، وقد تناوبنا مع رفيقنا السرحاني الركوب، واضطررت أحيانا للمشي محتذيا بمداس شامي (كندرة) احتذاء صديقي الذي قرح المداس قدميه، فإنه لم يصنع للهضاب والشعاب، ولما أتعبني انتعاله، نزعته وسرت حافياً، فأرحت قدمي قليلاً، إلا أنه سرعان ما يتعب الحضري الترف في وعوثة الرمال، ووعورة الجبال، فكنت أقول في نفسي: ليتني اعتدت قبل هذا الجلاء الحفاء، وعملت بقول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب: «احفوا وانتعلوا، فإنكم لا تدرون متى تكون الجفلة» فلهذا، اضطرتني تلك الجفلة، فاحتذيت كالسروجي الوجى، واحتذيت وصاحبي الشجا، واستطبنا الجوى، وطوينا الأحشاء على الطوى، ثم بعد اللتيا والتي، بلغنا عصارى النهار قرية كاف كبرى القريات الملحية، وانخنا الراحلة في دار شيخها طلبا للراحة، وكرعنا، لشدة الظمأ، الماء كرعاً، وقُدِّمَ لنا طبق فيه من كل صنف من التمر الكافي زوجان، فأكلنا من أطايبه تمرات تقيم الأصلاب، وتنسي الأتعاب ثم أعدنا كرة السير الى «العقيلة» فبلغنا مخيم الحويطات والشمس هابطة لتتوارى بالحجاب، ودخلنا فسطاط [٣] الشيخ عودة المنشود.

---

١ ـــ الاحضار ضرب من جري الفرس دون الارباع.

٢ ـــ هو البخاري، بالباء والخاء المعجمتين، نجل الشيخ سليم البخاري الذي طبع الأب لويس شيخو على نسخته المنقحة كتاب الألفاظ الكتابية.

٣ ـــ الفسطاط الخيمة، وبها سمي فسطاط مصر.

وبعد أن سلمنا عليه، وأخذنا مقاعدنا بين البدو، ألفينا فيهم نفراً من الشام، أقبلوا وسلموا علينا، وأخذوا في محادثتنا، ولما سألونا عن الاسم، رأينا من الحزم الكتم، ومن الصواب ان نشك ونرتاب، فقلت لهم اسمي عبد الله نديم، وهو اسم كنت اخترته في الجولان، تفاؤلا بالنجاة، لما كان لهذا الاسم الميمون على صاحبه المعروف [1] من الفضل والبركة. وقال صاحبي اسمي سالم، قالوا: والنسب؟ قلنا من العرب. فقال أحدهم عن أخي جلال إنه لشقرته من بيت العظم، واني من بيت الجزائري رجما بالغيب. فسكتنا وكأن السكوت أقرار. ثم قلنا لهم إنا لم نلذ بالفرار إلا حذراً من التجند، فمن الواجب عليكم، لما بيننا من وحدة الوطن، أن توصوا بنا الشيخ عودة الذي لم نكن لنعرفه من قبل، وذلك كيما يسهل لنا الوصول الى الجوف. فوعدونا ووفوا بعد تناول العشاء، إذ عرّفوا الشيخ بنا تعريفاً حسناً دعاه ليقول، وكأنه قد علم من مواطنينا بعجرنا وبجرنا [2]: لا بأس لا بأس عليكما. وليفرج كربكما، وليأمن عندي سربكما، فأنا أيضا من ذوي القومية، واخوان الجمعية فرحبا بكم إذ ندبتم أهلا، فأصبتم سهلا.

(قريات الملح)

جمع قُرَيّة تصغير قرية وأضيفت للملح لأن بها في «كاف» ملاحات طبيعية، يعود ريعها لأمير الجوف نواف الشعلان، لا للديون العمومية، وهي عبارة عن عدة واحات من النخيل، في كل واحة عدة بيوت قروية مشيدة باللبن، وأهم هذه الواحات قريات ثلاث كبراهن قرية «كاف» [3]، «فمنوة» [4]، «فاثرة». وفي كاف ما يزيد على عشرين ألف نخلة باسقة، جعل الله منها رزق أهل القريات، ومن الملح، ينقلونه الى حوران وعجلون والجولان على متون الزوامل. وقد علمت ان منهم من يشتري بأثمانه بضائع دمشقية مما

---

١ – يعني عبد الله النديم صاحب «التنكيت والتبكيت»، من رواد النهضة الثقافية الأصيلة بمصر في القرن الماضي.

٢ – ومنه قول الامام علي: الى الله اشكو عجري وبجري. أي كل ما يكربني، والبجر عقد في البطن.. هذا هو المعنى الأصلي.

٣ – تقع على خط عرض ٢٨ر٣١ْ وطول ٣٠ر٣٧ْ، لم يذكرها ياقوت وان كان ذكر حصنا على ساحل البحر المتوسط بهذا الاسم، وأكثر اتصال اهلها وما جاورها من القرى مع بصرى الشام.. كان. المعجم الجغرافي لشمال المملكة السعودية ٣/١١٣٣

٤ – بكسر الميم. وتقع الى الشرق الجنوبي من النبك بمسافة ميل واحد. وهي غير منوة التي في جبال حسمى. المعجم الجغرافي لشمال المملكة السعودية ٣/١٢٨١.

يصلح للبادية، كي يبيعها للعرب، فيربح من تجارة لن تبور، ربحاً جماً. وأما البدو،فهم كما ذكرت يحمّلون جمالهم ملحاً،يدفعون ضريبة كل حمل ريالا مجيديا،ليبيعوا في أرياف الشام الملح بالحنطة،وفي ذلك معاش لهم،وتخفيف لما يمتارون.

الحويطات

قبيلة قوية انتشرت مساكنها في الشام من محطة العلاء الى معان والعقبة وغزة، وتشعبت فصائل وبطونا كالتوائهة (١) والجوازي وبني عطية، والبدول، والدبور، وعمران، والبطحة والطرابين وغيرهم، وقد قدرهم الفاضل البتنوني بسبعين ألف بيت، وذكر بينهم الجازاي، وهم الجوازي الذين يقال لهم أيضاً بنوجازي، وشيخهم عبطان بن جازي، ابن عم عودة شيخ التوائهة، ومنازل كلتا الجوازي والتوائهة معان، ولهم هناك بطش وصوله تخشاها الدولة التركية، وقد افترق، منذ بضع سنين، التوائهة عن بني عمهم الجوازي، لفساد ألقي بين الشيخين، فهجرت التوائهة منازل العمومة والخؤولة إباء، وحرصاً على أن لا تُطَلّ بينهم وبني الأعمام الدماء هدراً، وحالفوا الدولة، وصاروا يشرقون معهم و يغربون، ثم توثقت عرى الاخاء والمودة بين نواف وعودة كثيراً، فزادت بذلك الدولة قوة على قوة في بادية الشام.

وحينما كنت نزيل التوائهة، غزا الشيخ عودة ابن عمه عبطان مرتين، فقتل في الأولى رئيس الحملة عناد بن عودة، رحمه الله، فقد كان شاباً حفياً بنا؛ في السلم الرقيق المحبوب، وفي حومة الوغى ابن كريهة ومردى،(٢) حروب. وترأس الحملة الثانية الشيخ نفسه، طلبا بثأر ولده وخليفته من بعده. ورافقه كوكبة من الدولة عليهم فارس الشعلان، وخرج الفريقان ما بين فارس وراعي مطية مُكَفَّرين (٣) في السلاح. ومما يجدر بالحضري أن يضرب به هنا مثلا بتجلد البدو وقوة احتمالهم، أن الشيخ عودة، حينما بلغه نعي حشاشته، لم يتنهد ولم يبك، ولا تندت بالدموع عيناه، على أن الرنين (٤)، في عرف الحضري، استراحة المنكوب وفيضة الملآن.

---

١ — هم الذين يعرفون في جنوب الاردن وفلسطين، وسيناء باسم التياها واعتقد ان ذلك نسبة الى «التيه» من سيناء وجنوب فلسطين، الا أن يكون الاشتقاق من تاه يتيه بمعنى تكبر واختال.

٢ — المردى والمرادة الحجر الكبير تكسر به غيره من الأشياء.

٣ — أي تغطيهم الأسلحة، لكثرتها.

٤ — الصياح فيه حزن.

إن الشيخ عودة رجل عرفته البادية بكرمه ونجدته ونخوته العربية، كما أن البدو يعدونه أحد فحول الحرب في بادية الشام وقرومها[1]. وله ابن عم يقال له محمد دحيلان، يغزو معه و يشاطره هذه المناقب. وكثيراً ما كنت أذكر لعودة وقومه فظائع القتال، وما ينجم عن الغزو المستمر من البلاء وسفك الدماء، وأنه محرم عقلاً ونقلاً، فكانوا يعتذرون بأن الغزو ضرر لا مفر منه، ولهم فيه معاش، فلا يستغنون عنه، وأن في الضرب بالنار أخذاً بالثأر وغسلاً للعار، وأن لا طاقة لهم بحسمه، إذ نفعه أكبر من إثمه. والغريب أنهم يأخذون للغزو معهم الصبيان، ليعتادوا من حداثتهم شهود الميدان، والثبات في معترك الفرسان. وأما انا فما لي بالغزو أرب ولا لي به يدان. بل كنت حينما اجتاب القفار أطلب السلامة من الحفيظ الستار، وقد طالما قلت في نفسي:

أشتهي أن لا أرى الغزو ولا الغزو يراني.

التضامن البدوي

ثروة البدوي لهذا الغزو سريعة الزوال، ولا تستقر على حال، تحاكي ثروة المقامرين في المصفق (البورصة) إذ بينما ترى البدوي يضحي وهو ذو ثراء في ربعه، إذ بك تراه يمسي، وهو لفقره المدقع، كأن قد ضرب على بصره وسمعه، ولكن البدو من مناقبهم التضامن في البلوى والتظاهر على البر والتقوى، فتراهم يتسابقون الى مد يد المعونة للعزيز إذا ذل، فهذا يجود له ببعير، وهذاك بكساء وحصير، وذاك بعنزة او عنزتين، وذلك بقربة او علبة، والآخر يرضخ له بدرهمات يسترن مهتوك ستره، و يرأبن مصدوع أمره.

مكثنا بعد غزوة الشيخ بضعة أيام في مضربه الرفيع العماد، الكثير الرماد[2] وغيرنا مراحلنا انتجاعاً وارتياداً، حتى هبطنا ماء يقال له المخيضر[3]، وكأنه تصغير مخضر أي

---

١ ـــ جمع قرم، وهو الشهم الكريم.

٢ ـــ كناية عن الكرم، وأول ورود هاتين العبارتين كان في شعر الخنساء.

٣ ـــ لعله بالحاء، و بالخاء لم يرد في معجم بلدان شمال المملكة العربية السعودية ولا شك أن احدهما صحف أما مجلة المقتطف باعجام الحاء أو المعجم الجغرافي باهمال الخاء. حيث قال:

المحيضر: ورد ذكره في قصيدة لخلف الاذن من آل شعلان شيوخ الرولة في وقعة للرولة على بني صخر في الحماد قال فيها:

ذيب المحيضر مخصب عقب ما جاع   مكيف يلعب علي أبو عتابه

و يظهر أنه اسم جبل في أطراف الحماد. (٣/١٢٠٠).

قلت: الأرجح عندي بالخاء لأنهم يصفون الماء بالخضرة، ولا سيما اذا كان سدما علاه الطحلب. و يرجحه كلام التنوخي التالي، وكونه زار المكان.

مكان الخضرة، وماؤه شروب، وكنا كلما أمعنا في التشريق أمعن الجو في الاعتدال، ولج الهواء بالاعتلال، مما جعلنا لا نأسى كثيراً على ما كتبه الله علينا من الجلاء، وإن كان قد قرنه بالقتل فقال: «وَلَوْ أَنَّا كَتَبنا عَلَيهِم أَنِ اقْتُلوا أَنْفسكم أو اخْرُجوا من دِيارِكم ما فَعَلُوه إلاّ قليلٌ منهم» (١) فقد كنا صباح مساء نمتع النواظر ببهيج المناظر المتعددة المتجددة، ونستنشق أنقى الهواء الفياح بأريج الشيح والقيصوم (٢)، وناهيك بشهرة عطور جزيرتنا العربية، التي غدت مضرب أمثال الأمم الغربية، مما أولع العرب بإيثار باديتهم الطيبة على بلادنا الحضرية. وهم، لتبدل المناظر أمامهم كل حين، عديمو الحاجة للمسارح والصور المتحركة. فكل بيت من الشعر في نظرهم بيت من الشعر، فلا غرو إذا ما اختاروا هذا البيت الخفيف المحبب على بيتنا المنيف المقبب. ولا أقول قولي هذا تعصبا لهؤلاء الأعراب الذين هم مادة قومي العرب، فقد أقرهم بذلك قبلي المستشرقون الرحالون، وأي شهادة أرجح من شهادة نابغة مستشرقات الإنكليز الآنسة جرترود بل — Gertrude Lowthain Bell في رحلتها الموسومه بالغامر والعامر — The desert and the Sown إذ تقول صفحة ٣٨: وخيمة العربي مفتوحة لمهب الريح دائماً، وإذا ما اختلف المهب فالنساء ينقلن رواق البيت إلى جهة أخرى، فترى في لحظة أن بيتك قد تبدلت مرائيه وواجه أنسب المناظر الرائعة، فهو على صغره وخفته يرى راسخا بقوة لا تؤثر فيها العواصف إلا قليلاً، وإن المسام الغليظة لنسيجه المتخذ من شعر الماعز، لتتسع ثم تتضايق بالرطوبة، فالبيت الى أن يكف (٣) المطر بحاجة الى ديمة مسوقة بعاصفة نكباء.

ولكنني لم أكن مغرما بهذه البادية إلا مرغما، وإنما المعول على الحبيب الأول، فقد كنت لحنيني الى أوطاني، وأنيني لمفارقة خلاني، كما قال الشاعر،وفي قوله دليل أيضا على غناء الماتحين وشقاء النازحين:

وما صاديات صمن يوما وليلة	على الماء يخشين العصي حواني
لوائب لا يصدرن عنه بوجهة	ولا هن من يردن الحياض دواني
يرين حباب الماء والموت دونه	فهن لأصوات السقاة رواني
بأوجع مني جهد شوق وغلة	اليها ولكن العدو عداني

١ — سورة النساء — الآية ٦٦

٢ — من نبات البادية طيبة الريح، يتداوون بها.

٣ — يسيل، يقطر

(الدين في البادية) [1]

الانسان ابن البيئة والمربي، والبدوي لخشونته وعُنْجُهيته [2] في أخلاقه شراسة، وقسوة، فهو لا يشعر بما يشعر به القروي المتحضر من عواطف الرحمة والحنان، أو ما تجمل به من محاسن الحضارة، كاللين واللطف ورقة الطبع وخفة الظل إلا قليلاً. ولهذا ورد في الكتاب العزيز أن الأعراب أشد كفراً ونفاقاً [3] وإن كان منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر. ولهذا ترى البدوي اليوم يُكب مُسلّماً على رأس أميره أو شيخه، بأن يقبل رأسه استنجاحا لطلبته، مما لا يقوى عليه الحضري من تحمل إكباب كل بدوي على رأسه، ولهذا كان يضطر الأمراء الأشراف في الحجاز، إذا ازدحم البدو في السلام عليهم، أن يقولوا لهم: (النظر تحية) أي قد يغني النظر مع الاحترام والسلام عن التحية وعادتها المعروفة.

ومما حفظته كتب الأدب لنا أن رجالاً من وفد تميم نادوا النبي (صلى الله عليه وسلم) باسمه من وراء الحجرات فقال الله تعالى «إنَّ الّذِين يُنادُونكَ مِنْ وراءِ الحُجراتِ أكْثرُهُم لا يَعْقِلون» [4] . فالبدو لخشونتهم، وتوحش بواديهم، جفاة الطباع، قساة القلوب، وأشد الناس حاجة الى ما يشذب من أخلاقهم، و يثقف من أميالهم، و ينبط ماء الحنان والشفقة من قلوبهم. والبدو لفقد الوازع بين ظهرانيهم، وفقد انتشار العلم في قبائلهم، بحاجة كبيرة الى الدين البسيط الخالي من الخرافات، وهم أشد الناس خضوعا للدين اذا عرفوه، وله في نفوسهم تأثير شديد جدا.

في القرون المتأخرة عم الجهل بالدين جزيرة العرب، اللهم إلا بعض جهاتها كعمان واليمن، ولم يستفق العرب من سباتهم، ولا انقشعت عنهم ظلمات الجهالة إلا بعد قيام محمد ابن عبد الوهاب وآل سعود بثورتهم الدينية والسياسية القومية. فترى اليوم أن عربان نجد والقصيم أقل من عربان بادية الشام وسواد العراق شروراً وجهلاً بأمور الدين، فعرب شمر مثلاً يصلون، وأما الرولة فلا يعرفون إقامة الصلاة.

البدو كالناس، على دين ملوكهم، ولذا امتاز التوائهة عن سائر البدو في الشام بذكر الله أحيانا وإقامة الصلاة، لأن شيخهم عودة لا يتركها، و يأمر قومه بها، فتراهم اذا حانت الصلاة هرولوا الى الأرض، وتيمموا صعيداً طيباً ثم أذن مؤذنهم، وهو شاب جوفي من

---

١ — بداية الحلقة الثالثة، وقد نشرت في عدد اغسطس سنة ١٩١٧ ص١١٩ — ١٢٤.

٢ — العنجهية: هي الجفاء والخشونة في المطعم وغيره، وكل ما هو من لوازم البادية الوعرة.

٣ — يريد قوله تعالى «الأعراب أشد كفرا ونفاقا، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله» التوبة ٩٧.

٤ — سورة الحجرات الآية ٤

الوهابيين الحنابلة، فاصطفوا للصلاة، وتنزلت عليهم السكينة وكأن على رؤوسهم الطير، فيعلوهم ذلك التعبير الرهيب: الله أكبر[1] ! فكنت أصلي معهم وأقول راكعاً ساجداً في نفسي عند كل تكبيرة: الله أكبر، وما أعظمك يا محمد، كيف استطعت ان تجمع من هؤلاء العرب الكلمة، وتعلمهم بمثل هذه الصلاة النظام والتواضع والرحمة.

ولعلمي بما للدين من قوة التأثير في نفوس البدو كنت اذا قابلت جماعة من العرب، وداخلني منهم ريبة، وتبينت الشر في أعينهم، أتظاهر بتلاوة الأذكار والتسبيح والاستغفار، بل أكثر من ترداد البسملة، والهيللة، والحمدلة، والسبحلة، والحسبلة، والحوقلة، وأعلمهم بأني من رجال الله وطالبي العلم بالأزهر، لا ضاربي الدف والمِزْهر. وقد دعاني لهذا الشيخ عودة ابو تائه مراراً للوعظ والتذكير، فكنت أفسر لهم بعد كل صلاة عصر شيئاً من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ما أتخذه، والحديث ذو شجون، سلماً للمقاصد القومية، فأذكرهم بمجد أسلافهم العرب، وما كان لهم من علم وعز وسلطان، وكيف كانت تفد أعراب البوادي على عرب الحواضر، لتروي لهم أشعار من كانوا في الجاهلية ولغتهم وآدابهم، وما كانوا ينالونه بذلك من خيرات الحضر والحفاوة والإكرام، وكيف قلب لهم اليوم بتحكم الأتراك مجن الدهر، وعضتهم أنياب العيلة والفقر، حتى ألصقتهم بالأرض أحكام العسر والقسر، وهلم جرا، من العبارات التي كان يبدو عليهم التأثر بها، والتحسر، وتثير من جوانحهم كوامن الغضب على القوم الظالمين.

(نخوة العرب)

هي اليوم اكتناؤهم بالأمس في مقام الافتخار، أو ميدان الحرب والجلاد، وكل قبيلة لها نخوة عربية معلومة، والتي لا نخوة لها لا شرف لها، وتكون النخوة باللقب الممدوح، أو التكني بأب، أو أم أو أخ أو أخت، وقد يكون للقبيلة نخوة، ولشيخها أخرى، كعرب الحويطات، فإن نخوتهم «أخوة صالحة» ونخوة عودة أبي تائه «أخو عليا» وعلياء هذه هي شقيقته، زوجة ابن عمه عبطان بن جازي، شيخ الجوازي الذي مر بنا ذكره.

ونخوة الشعلان «رعاة العليا» وبني صخر «رعاة العرفا» وهي الناقة المنيفة السنام لغة. ونخوة السرحان «رعاة البويضا» ثم بنو صخر كما قدمنا فصيلتان: الفائز ونخوة أحدهم «أخو بلها» وفي القاموس أن البلهاء هي المرأة الكريمة العزيزة. ونخوة الخرشان «أخوفلوة»

---

1 — في الأصل «الله وأكبر» ولا أصل للواو، ولكن بعض المؤذنين يمد ضمة الهاء من لفظ الجلالة فتبدو واوا.

وأظن فلوة تأنيث فلو وزان عدو، وهو المهر، تحرفت بعد أن قيل في البادية «هذه عصاتي» (١).

ومن عادة العرب مدح الفتاة النجيبة بقولهم: فلانة مهرة عربية كما قال الشاعر:

«وما هند إلا مهرة عربية»(٢)   ....(١)

ونخوة الشرارات بنو مكلب (٣) .

(وادي السرحان)

لم يرد له في معجم البلدان ذكر، وهو مضاف الى قبيلة السرحان، وربما كان في القديم مضافا الى غيرها، وهو ممتد من قريات الملح الى قرب دومة الجندل. وأرضه رملية منبسطة، يغشاها أحياناً بساط خفيف من حصى المرو والصوان و بعض الآكام. ويحد الوادي شمالاً سلسلة من الجبال التي تبدو حمراء للركبان، وهي لا تعلو عن سطح الأرض كثيراً. وهذا الوادي لا يظمأ مرتاده لكثرة آباره(٤)، ولذلك تختاره القوافل السيارة بين الجوف والشام.

وكنا نرى أثناء سفرنا في هذا الوادي آثار الضباع والغزلان والمها، ومن الطير آثار النعام والحبارى. و بالبدو قَرَم الى لحوم الحبارى التي يصطادونها بالصقور. ورأيت أسراباً من الطير كالحجل، فأردت أن أسأل البدو عنه فسمعت صوته وقد كاد أن ينطق: قطا. قطا. قطا. بحروفها،فغلب على ظني أنه القطا بعينه، ثم سألت بدوياً كان يحاذيني من الركب عن اسمه فقال: القطا، فصرت أترنم بالبيت الذي يستشهد به النحاة في إنزال ما لا يعقل منزلة العاقل، وأنادي كمجنون ليلى القطا حنينا الى دياري وشغفا بحب سكانها:

أسرب القطا هل من يعير جناحه   لعلي الى من هويت أطير

ثم تعود ثانية وتقطقط فأذكر قول الشاعر:

«يا حسنها حين تدعوها فتنتسب»

---

١ — اول لحن ظهر في البادية والصواب ان يقال هذه عصاي. قال الفراء انه أول لحن سمع بالعراق (المزهر ١/٣٢).

٢ — وتمامه:

....   سليلة أفراس تجللها بغل

قيل: ان هند بنت النعمان بن بشير هي التي قالته تذم زوجها.

٣ — لأنهم يعودون بنسبهم الى كلب بن و برة.

٤ — وهذا يفسر رد «باير» الى أباير، وتفسيرها بأنها جمع جمع بئر — آبار — أبائر.

وسنعرض لوادي السرحان و باير في معجم البلدان الأردنية والفلسطينية.

(أو يسط)

بعد أن جزنا ماء المخيضر مررنا بماء العيسوية (١) ، ولا ذكر لها في معجم ياقوت، ثم أنخنا رواحلنا في أو يسط (٢) لأنها تصغير واسط، ولم ترد في معجم البلدان أيضا، بل ورد واسط، وسمي به مواضع كثيرة في جزيرة العرب، وهي سبعة حسب رواية أبي الندى(٣) ، وحول أو يسط مراع طيبة.

(مراعي البادية)

ليس في البادية مراع صناعية كما في القرى المتحضرة والأرياف الزراعية، وهي خاصة بالابل، وقد يوجد من النبات ما يصلح لرعي سائر المواشي، وهذه المراعي عبارة عن أعشاب منشورة في سهول البادية وأوديتها وآكامها، وهناك من الأشجار الشائكة (العضاه) وغير شائكة (٤) تقضم الابل أطرافها الخضراء في السنة المجدبة، و يطلق البدو اليوم الشجر على الأعشاب وماله ساق من الأشجار، كالغضا، والأثل، والسدر، والسلم، والطلح، والطرفاء مما ينبت في البادية.

والأعشاب منها ما هو حمض يقوم للابل مقام التوابل (٥) ، كالروثة والرمث، وقد ذقتها فاذا بها شيء من الحموضة، وهي وسائر الأعشاب يتراوح طولها ما بين شبرين أو ثلاثة، وأوراقها دقيقة، وللروثة زهر أحمر جميل. ومن الأعشاب ماله عرف شذي تعبق منه البادية، كالشيح والقيصوم، وهما مع الروثة والرمث أحب المرعى للإبل، لأنها تسمن وتغني من جوع، ولذلك ترى البدوي إذا ارتاد أو وصف أرضاً مخصبة لا يبدأ إلا بذكر هذه البقول الطيبة، كما كان يفعل البدوي الجاهلي. فقد روي أن أعرابياً وصف أرضاً أحمدها فقال: «خلع شيحها[٦]، وأبقل رمثها، وخضب عرفجها، واتسق نبتها» ومعنى قوله خلع شيحها، أي: أورق، وخضب عرفجها، أي أسود لخضرته، واتسق نبتها أي تتام.

---

١ — هي العيساوية، كأنه منسوب الى عيسى.. تقع في ملتقى طرق متعددة الى الجوف فالقريات، ومن وادي السرحان الى تبوك عن طريق تيماء. المعجم الجغرافي ٩٦٢/٣.

٢ — انظر المرجع السابق ١٥١/١

٣ — انظر معجم البلدان ٣٤٨/٥

٤ — العضاة شجر الشوك، الواحدة عضاهة، والسرح كل شجر لا شوك له. الواحدة سرحة.

٥ — تقول العرب الخلة خبز الابل والحمض فاكهتها. ومنبت الخلة، وهي كل شجر ليس بحمض، يسمى الندوة. قال راجزهم:

قربوا كل جمالي عضه   قريبة ندوته من محمضه

أي كل بعير ضخم، قريب خبزه منه وفاكهته.

٦ — خلع الشيح والشجر كله اذا أورق وأنبت ورقا طريا.

ومن الأعشاب التي تهيم بها الابل النَّصِيّ، فما ادخرته لنا كتب الأدب أن الأخوص بن جعفر بعدما كبر وعمي، وبنوه يسوقون به الأباعر قال لهم: «أي شيء ترتعي الإبل» قالوا: الثمام والضغة. قال: «سوقوا» ثم عادت فارتعت بمكان آخر فقال: أي شيء ترتعي الإبل؟ قالوا: العضاه والقضة. قال: سوقوا حتى إذا بلغوا بلداً آخر قال: أي شيء ترتعي الإبل؟ قالوا: نصيا وصليانا. قال: مكفية لرعائها، مطولة لذراها، ارعوا واشبعوا. ثم سألهم أي شيء ترتعي الإبل؟ قالوا: الرمث. قال: خلقت، منه وخلق منها.

قال أبو صاعد [1] : وزعم الناس أن أول ما خلقت الإبل من الرمث، وعلامة ذلك أنك لا ترى دابة تريده إلا الإبل. وقد رأيت حاشية البيان والتبيين صفحة ٧٧ من الجزء الثاني تذكر أن الرمث مرعى الإبل، وهو شجر يشبه الغضا، وهو تعريف غير صحيح لأن الرمث لا يزيد ارتفاعه على شبرين أو ثلاثة، والغضا قد يستظل بشجرته الاثنان والثلاثة من الركب، وقد ينمو فيبلغ ثلاثة أمتار علواً.

قال المصباح: والرمث وزان حِمْل، مرعى من مراعي الإبل، ينبت في السهل، وهو من الحمض. وهذا التعريف صحيح بيد أنه غير مخصص.

وقد شاهدت شجر الأرطى لا تعلو شجرته ارتفاعاً على متر، و يتخذ البدو منه **صبغاً**، ووقوداً من قضبانه، ورأيت العرفج، و بقلاً يقال له القرط ترعاه الإبل. ومن أزهار البادية: الأقحوان، والحَوْذان، وشقائق النعمان، ثم إن الاشنان من نبات البادية، وهو معرب، وبالعربية الحُرُض، يجمع البدوي منه ما يقوم مقام الصابون، وإن كان للبدو صابون آخر لغسل الأيدي من الطعام، وهو طرف بيت الشعر يمسحون به بعد انتهاء الأكل أكفهم مما علق بها من الأدهان.

وكنا إذا أنخنا مساء رواحلنا، نجمع من الشجر اليابس أو العشب الهشيم ما نتخذه وقوداً لطعامنا، ودفأ في الليل لأجسامنا، فليس ــ كما قالت العرب ــ شيء أدفأ من شجرة ولا أظل من شجرة.

---

١ ــ هو ابو صاعد الحسن بن صاعد. قال ابن عساكر: كان يغرب في أشياء يخترعها. توفي سنة ٤٧٥هـ. تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣٦٠/٦.

(الـمَيْسرِيّ) [١]

مكثنا بضعة أيام في بيت عودة بعد أن ذهب، كما سبق، للغزو ثم صعبت على رفيقي عيشة البادية الخشنة، وكنت أشد منه جلداً، وخشينا عاقبة الغزو المريبة، فاستأجرنا راحلة بليرتين فرنسويتين، ليوصلنا صاحبها عليها للجوف، وهو من عرب التوائهة، لا يركن اليه.

وقد مررنا بقليب بجانبه نخلة واحدة، و يقال له الميسري، بكسر الميم وفتح السين. وذكر ياقوت [٢] الميسر، ونص على أنه موضع شامي، والميسري كذلك أقرب للشام منه الى نجد. وقد لقينا في سفرنا هذا كثيراً من الأرانب البرية، و يلقبها البدو بغزلان الحماد، أي البادية المرتفعة، فبينما يكون البدوي راجلاً، لا يشعر إلا وأرنب تثب بغتة من جانبه، فإن تمكن منها حذفها بعصاه، وإلا أدركتها الكلاب إذا كانت سلوقية، ولا يعلم بالتحقيق الزمن الذي استعمل فيه الانسان الأول العصا للأذى، ففي الأمثال العربية القديمة: «تحذفه بالقول كما تحذف الأرنب بالعصا».

(الجراوي)

وما زلنا نضرب في البيد غوراً ونجداً، حتى جزنا بموضع يقال له النُّبك [٣]، فذكرني نبك قلمون في الشام، وكنا آنئذ نواصل السرى تحت جنح الظلام، وفي ثاني يوم أوردنا رواحلنا قليب الجراوي [٤]، بعد أن لقينا من لفحات السموم في الفلاة ما هو، لعمري، أحر من دمع المقلا. فأنخنا لنروي، فوجدنا الماء لقلة المتح، كما يعلله البدو، متغير اللون والطعم والرائحة، وفيه مع ذلك خلق من الدود كثير، فهرول صاحبي لينقع غلته من علبة الماء، فصار يتجرعه ولا يكاد يسيغه، حائراً للبدو كيف يكرعونه وهم يقولون: «ترى البدو أباعر بأباعر» [٥] !

أما أنا، والحاجة تفتح باب المعرفة، كما ورد في الأمثال العربية القديمة، فقد أخرجت

---

١ — هكذا ضبطه حمد الجاسر ١٢٩٦/٣ وقال: كأنه منسوب الى الميسر، وهو سهل يقع جنوب طبرجل بقربها، يدعه طريق من الجوف الى القريات يساره.. و يقرن بالنباج، يقال: الميسري والنباج. وسيأتي ضبط التنوخي بكسر الميم وفتح السين، ولعل هذه هي اللغة الدارجة.

٢ — ٢٤٣/٥ ميسر: موضع شامي.

٣ — حمد الجاسر ١٣١١/٣ وذكر ياقوت نبك الشام ٢٥٨/٥.

٤ — حمد الجاسر ٣١٥/١ وذكره ياقوت ١١٧/٢ وقال انها مياه في بلاد القين بن جسر، وهي قلب على طريق طيء الى الشام..

٥ — ومعناه انهم يشبهون أنفسهم بالابل في شربها ذلك الماء، وفي غير هذه الصفة، وقد سمعت عرب بني شهر وغيرهم يقولون: فلان «جمل كل ديرة» اذا كان لا يعاف شرابا أو طعاما، وهذه خصلة يحمدونها.

منديلي وملأته رملاً نقياً، وصفيت الماء برشحه من الرمل في العلبة، فتضاحك البدو لما صنعت تضاحكاً مازجه حسرة على شقائنا!

والجراوي هذا على بعد نحو مئة كيلومتر من دومة الجندل، ومن الغريب أن ماء هذا القليب الآسن الوخيم كان مهجياً مقلياً من القديم، واليك قول ياقوت: (١) «الجراوي يروى بضم الجيم وفتحها والضم أكثر وهي مياه في بلاد القين بن جسر وقيل هي قلب على طريق طيء الى الشام، وقيل مياه لطيء بالجبلين، قال بعض الأعراب:

ألا لا أرى ماء الجراوي شافياً ... صداي ولو روى غليل الركائب

فيالهف نفسي كلما التحت لوحة ... على شربة من ماء أحواض ناضب»

وترى هنا أن معجم البلدان لم يعين لنا موضع هذا الماء فمن المحتمل وحدة الاسم وتثليث المسمى، والقول الثاني يطابق الجراوي الذي وردته، لأنه على طريق طيء الى الشام.

(طعام البادية) (٢)

لا يزال البدو مقتصرين ــ كما ذكر ابن خلدون ــ على الضروري من الأقوات والملابس وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرين عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي (٣)، ويتناولون أقواتهم بعلاج أو غير علاج، الا ما مسته النار، وذلك لاضطرار البدوي الى التنقل في كل حين، فاختار بحكم معيشته الأيسر تناولا، فتأنق الحضارة أمر لم يعرفه البدوي، فإنه إذا أقام أياما في منزل وأكل العصيدة، عد ذلك من النعيم، وهذه العصيدة عبارة عن اللبن الحليب يغلى، فيذرون عليه الدقيق تارة، أو يضعون فيه البرالجريش «البرغل»، وقليلا من الدهن، ويقال لها حينئذ الجريشة. واذا ضيف رجلاً عزيزاً ذبح له نعجة أو خروفاً، ودعا إكراماً للضيف كثيراً من البدو لمؤاكلته، فكنا نفرح اذا ما حل بنا ضيف لنصيب حظنا من لحم لا نذوقه في البادية الا قليلاً. أما في الأعياد والأفراح فيذبحون الابل الكوماء، لأن لحم البعير عند البدوي سيد اللحم كله. وكان بريكان الصليبي اذا أراد أن ينعمني بطعام العشاء طبخ الأرز، ويسمونه «التمن» وبعد ان ينضج بأوساخه يضعه في باطية، ويحفر في أوسطه حفرة يضع بها الزبدة التي تذوب بحرارة الطعام، فتلبك الأرز بالزبدة، ونزدرده ازدراداً.

---

١ ــ ١١٧/٢

٢ ــ بداية الحلقة الرابعة وقد نشرت في عدد اكتوبر سنة ١٩١٧ من ٣٣١ ــ ٣٣٦

٣ ــ أي مما هو ضروري أو يعد في الكماليات.

وكان شاهر الخريشة الصخري يذيب السمن و يأتينا به بمقلاته، فتغمس فيه خبز الصاج الفطير، وقد يمزج لنا السمن بمستحلب الأقط (١) .

و بقينا هكذا أياماً لا نغتذي الا بالخبز والسمن، وقد ورث البدو هذه الأكلة النفيسة عن أسلافهم في الجاهلية، الذين كانوا يسمونها «الترو يل» فقد نقل الثعالبي عن ابن الأعرابي قوله: «فاذا دلكت الخبز بالسمن فهو الترو يل» ولا يزالون على آثار آبائهم الأولين في صنع خبز الملة. وذلك بأن يلتوا الدقيق بالماء، و يعجنوه عجنا خفيفا، ثم يحتطبوا و يوقدوا، فيفرشوا الجمر، و يطرحوا عليه الرغيف الثخين، ثم يغطوه بما بقي من النار، فاذا نضج الرغيف تقاسموه. وأكثر ما يصنع خبز الملة في السفر، وأما في الإقامة، فيأكلون خبز الصاج، وفي كلتا الحالتين لا يذوقون الخبز الخمير لأنه من الرفاهية التي حرم منها البدوي، فاذا ما ظفر بها شكر الله على تلك النعمة كثيراً.

وقد كان سلف هؤلاء البدو الصالح يعد الخبز الخمير من فاخر القِرى، فما رواه لنا عبد الله بن مصعب قال: وقف معاو ية على امرأة من بني كنانة فقال لها: (هل مِن قِرى) قالت: نعم قال: «وما قراك»؟ قالت: «عندي خبز خمير، ولبن قطير، وماء نمير»(٢). وفي حديث ابي ذر رضي الله عنه: «الحمد لله الذي أطعمنا الخمير وسقانا النمير» (٣) .

وسيد طعام القُرى البدو ية، كدومة الجندل (الجوف) وسكاكة، الدفينة، وهو الثر يد الذي كان العرب قديما، اذا أرادوا أن يفضلوا رجلاً قالوا: فضل فلان على سائر قومه كفضل الثر يد على سائر الطعام. وتعد الدفينة من بذخ العمران البدوي، وقد أكلتها في دومة الجندل مراراً، فألفيتها لذيذة شهية، ولا تصنع الا للولائم، أو قرى لضيف كريم. وطر يقتهم في عملها أن ينضدوا في طشت كبير (منسف) من رقائق الخبز نضداً يكفي المدعو ين، ثم يغطون هذا النضد بطبقة من الأرز، ثم يأتون بالذبيحة ناضجة، فيسقون بمرقها الثر يد، و يكومون اللحم فوقه تكويماً.

والصابون الذي نعده من مرافق العمران لا يوجد في البادية الا نادراً، فما كان صابوننا

١ ــ الأقط: و يقال له اليوم اقط وقد شاهدتهم يصنعونه من اللبن الحامض و يتخذون من جبنه أقراصا صغيرة يجففونها في الشمس ليدخروها مؤونة لهم في الاسفار.

قلت: يسمونه في بلاد قحطان المضير أيضا. وهو الجميد في الأردن وفلسطين و مثله.

٢ ــ اللسان (نمر) بحرفه.

٣ ــ نفس المرجع والمادة.

بعد الطعام الا أن نمسح أكفناً (١) من الدهن الكثيف بطرف الشقة من بيت الشعر. وما استغنى البدوي عن الصابون الا اقتصاداً في الماء القليل في البادية، كاستغناء الشارع بالتيمم عن الوضوء. وهم انما يدخرون الماء للطبخ أو اطفاء للعطش الذابح كما يعبرون. ولم أر بدوياً يمسح يديه بلحيته بعد الطعام وان كنا نسمع في بلاد الشام أن «صابون العرب لحاها»، ولا ينزل قدرهم عن أثافي الموقد، و يصب الطعام في الجفان، الا ويحدق فيها البدو أحداق الخوارج بأبي نعامة (٢)، يلمقونه وهويكا: لشدة حرارته يفور. فكنت ورفيقي نطلي جدار الجفنة بالطعام تبر يدا له، فيستطاع نوعا ما أكله. وكثيراً ما كنا ننزع من طعامهم يدينا بسرعة، ونحرك في الهواء أصابعنا ملذوعة، مستعيذين بالله من النار والطعام الحار، ولذلك كنا أبطأ القوم أكلا، ولم نكن بأعجلهم.. وقلما قمت عن الجفنة الا جائعاً، لأن يدي ما كانت لتتصل باللقمة الى فمي مرة الا وتكون يد البدوي قد وصلت، كما يشهد الله، عشراً. فالضرورة وحدها هي التي كانت تجعلني عاملاً بالحديث الذي أخرجه الترمذي عن المقدام بن معد يكرب: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن» (٣) وهي التي كانت تدعوني لأتمثل بقول حاتم:

فاني لأستحي أكيلي أن يرى ... مكان يدي من جانب الزاد أقرعاً
أكف يدي من أن تمس أكفهم ... اذا نحن أهوينا وحاجتنا معاً (٤)

ولهذا كان أهل الذوق من الأعراب يلاحظون ما يصيبنا من الغبن الفاحش بمشاركتنا أياهم في الأكل، إذ «سباق المذكيات غلاب» (٥) فيضعون بصحفة لنأكل على حدة، ونشبع على رسلنا. والله ما أصدق ذلك البدوي الذي قيل له: ما اسم المرق عندكم قال: السخين (٦). قيل فاذا برد. قال: لا ندعه حتى يبرد.

وقبل أن ندرك الجوف اصطاد بعض صحابتنا حيواناً صغيراً، أبيض البطن، رمادي

---

١ ــ ومثله قول امريء القيس:

نمش بأعراف الجياد أكفنا ... اذا نحن قمنا عن شواء مهضب

٢ ــ هو قطري بن الفجاءة، وهذه كنيته وقت الحرب، أما في السلم فأبو محمد (اللسان: نعم)

٣ ــ الترمذي ــ كتاب الزهد ص ٤٧ وابن ماجة في الأطعمة ص٥٠ وأحمد بن حنبل في مسنده ص٤، ١٣٢

٤ ــ ديوان حاتم ص ١٨٢، ١٨٣ (ط المدني ــ القاهرة) تحقيق د. عادل سليمان برواية:

واني لأستحي صحابي أن يروا ... مكان يدي في جانب الزاد أقرعا
اقصر كفي ان تنال أكفهم ... .

٥ ــ اللسان (ذكا): جرى المذكيات، وهي الخيل المسنة، أي أنها تغالب الجري غلابا.

٦ ــ نفس المرجع (سخن) وهو السخون أيضا.

الظهر، يداه أقصر من رجليه، خلته فأرة بر ية، فسألتهم عن اسمه فقالوا: جر بوع. فعلمت انه المراد من قول سادتنا النحاة في باب البدل: «خلق الله اليربوع يديه أقصر من رجليه»، (١) إذ ما اليربوع في الواقع الا الكنغر بصورة مصغرة، ثم أمرع الصائد وشواه وتقاسمه وصحبه، وازدردوه سر يعا كما يزدرد الحضري الفالوذج. وعثر بدوي آخر على أثر قنفذ، فاقتفره وعاد بعد هنيهة بصيده، وكأنه آب بجوف الفرا (٢)، فأضرم النار ورماه بها حياً، ولما تمكن من القبض على عنقه المنقبض حذر النار، ذبحه وأكله ورفاقه بعد تمام نضجه بجشع غر يب، ولقد باركت لهم ورفيقي بحصتينا من القنفذ واليربوع.

ورأى عرب السرحان في رائعة النهار (٣)، وقبل أن نصل الهزيم، ضبعاً طاردوها بخيلهم، والفرس أسرع من الضبع، فأدركوها وأصموها رمياً بالرصاص، وذبحوها وأولموا تلك الليلة بها. و يزعمون ان لحمها علاج من الحمى. وللبدو غرام بأكل الجراد، ولعله حل أكله توسلاً لإبادته، على أن له في السنة المجدبة نفعاً في البادية جز يلاً. ولهذا أجاب النبي (**صلى الله عليه وسلم**) من سأله عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله لا آكله ولا أحله» (٤). وفي رواية رز ين عن جابر: دعا النبي (صلى الله عليه وسلم) على الجراد فقال: «اللهم أهلك الجراد، اقتل كباره وأهلك صغاره واقطع دابره وخذ بأفواهها عن معايشنا وأرزاقنا انك سميع الدعاء» (٥) وعلى كل فاني أعلل أكله بما علل به الجهبذ البارع السيد أحمد زكي أكل الضفادع في رحلته «الدنيا في بار يس» فأقول: ان أكله ليس بشر من أبي جلمبو والمفتقة وأم الخلول، والعلجوم (٦) ولو اعتاده المرسيليون لاتخذوا منه طعاما نظير «البو يابيز».

ذكر الامام الجاحظ في المحاسن والاضداد قال: حدثنا بعض بني هاشم قال: قلت لأعرابي: من أين أقبلت؟ قال: من هذه البادية. قال: وأين تسكن منها؟ قال: مساقط الحمى حمى (٧) ضر ية، ما ان ــ لعمر الله ــ أر يد بها بدلاً، ولا أبتغي عنها حولاً، حفتها الفلوات، فلا يملولح ماؤها، ولا تحمى تربتها، ليس فيها أذى، ولا قذى ولا وعك ولاموم (البرسام)، ونحن بأرفه عيش، وأوسع معيشة، وأسبغ نعمة. قلت: مم طعامكم؟ قال: بخ

---

١ ــ ير يدون أن أصل الياء جيم جربوع، فأبدلوها منها الياء، وهي لهجة باقية في الخليج و بني شهر الى يومنا هذا. وهومن شواهد بدل الجزء من الكل أيضاً.

٢ ــ وهو حمار الوحش، ومنه المثل «كل الصيد في جوف الفرا».

٣ ــ نقول رائعة النهار ورابعته، سواء

٤ ــ انظر سنن أبي داوود ــ كتاب الأطعمة ص٣٤.

٥ ــ أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة ص٢٣.

٦ ــ الضفدع الذكر.

٧ ــ في الأصل الحُمَىٰ حُمَىٰ ، والصواب كسر الحاء وفتح الميم.

بح اهبيد (الحنظل) والضباب واليرابيع مع القنافذ والحيات، وربما، والله، أكلنا القد واشتوينا الجلد، فلا نعلم أحداً أخصب منا عيشاً، فالحمد لله على ما رزق من السعة، وبسط من حسن الدعة!

(ميقــــوع) (١)

بعد أن رويت ركائبنا من قليب الجراوي[٢]، امتطيناها وسارت بنا فوق الرمال وبين الشرق والشمال، وبعد نحو ساعتين رأينا عن بعد خيالاً، ظنه الركب فارساً من «شمر» غازياً، وكان قد فارقنا من الركب بدويان يقصدان ماء ميقوع، وقد تركناه على أيماننا، وكان عرب من بني سليمان نازلين عليه، وبعد ساعة عاد البدويان يخبان على راحلتيهما خوفا من ذلك الركب الشمري، وحينئذ أيقنا بالشر، فهربنا مياسرين (الى اليسار)، وصرنا نتوارى عن العدو بالهضاب، وما منا الا من عبأ بندقيته، كما عبأت مسدسي، وقد شددت للموت الحيازيم، وأنا أدعو الله الا يظفر بي أظفار الأعداء وأن يكفيني مخاشي اللأواء، وأظن أن الله استجاب لي الدعاء، فأعمى عين الغازين عنا، ونجانا برحمته جميعا.

وميقوع لم يرد بهذا اللفظ في معجم البلدان (٣) وانما ورد موقوع. قال: هو ماء بناحية البصرة قتل به أبو سعيد المثنى الخارجي العبدي. فان كان مصحفا عن موقوع، وهو غير بعيد، عرفنا أن في جزيرة العرب ماء غير واحد باسم موقوع، وهذا الماء على بعد مرحلتين من دومة الجندل، ونحو ساعتين من ماء الجراوي شرقا.

(العبـــد)

وما زلنا نطوي البيد، ونواصل السير بالسرى حتى لاح لنا من بعيد جبل شاهق في البيداء قاتم اللون، يقال له العبد، (٤) بينه وبين الجوف نحو فرسخ، وحينما بلغناه ألفينا بجانبه عدة قُلُب في وهدة يحدق بها رواب من الصُّفّاح الصلصالي، ووجدنا الحنظل نابتاً في

---

١ ــ حمد الجاسر ١٢٩٧/٣، وتقع الى الشمال من دومة الجندل بـ ٧٥ كيلا في طرف وادي السرحان، وهو منهل للبادية... وعليه وقعت وقعة بين بني صخر بقيادة الشيخ طراد بن زين وبين خلف الأذن من آل شعلان من الرولة من عنزة، فكانت الهزيمة على بني صخر. وانظر ابطال الصحراء ص ٢٥٧، ٢٥٨ ولم يذكره ياقوت، وذكر موقوع، وليس به.

٢ ــ في الأصل الجرادي، تحريف.

٣ ــ معجم البلدان ٢٢٦/٥.

٤ ــ حمد الجاسر ٨٧٩/٣، ٨٨٠ وجمهرة اللغة والقاموس (عبد) ومعجم البلدان ٧٧/٤ وبجانبه جبلان يسميان «الثديين». وهو عبد الجوف، ويقع الى الغرب منها، يرى بالعين.

هذه الوهدة، وبعد أن شربنا ركبنا وخبت بنا المطايا، سيما بعد ان شاهدت خضرة النخيل، وشعرت بأنها علي مقربة من الماء النمير والعلف الوفير، والظل الظليل. وأما أنا فقد شعرت بما يشعر به ركب السفينة السادرة في تيه البحار اذا ظهرت لهم الجزيرة، واطمأن فؤادي بابتعادي عن اشراك الأتراك.

ولما دنونا من دومة الجندل وجدتها في غور من الأرض يحدق بها الهضاب والآكام، فعلمت سبب تسمية البدو لها اليوم بالجوف، وشاهدت في مدخلها الغربي أنقاض سور كان بالصفاح مشيدا، وما زلنا نلج في نخيل الجوف ونشاهد بيوت الشرارات الشعرية حتى بلغنا البيوت الحجرية، فلم ننخ المطايا لوصولنا بعد الغروب في قصر الأمير، وأنخناها في مخيم طائفة من عقيل نجد، جاءت الى الجوف من الشام لاشتراء جمال للحكومة التركية. وقد رحبوا — لعمر الحق — بنا ترحيبا حسنا، وأتونا قرب صلاة العشاء بالقرى، فطعمنا ونمنا.

وفي الصباح أتانا رجل من جماعة الأمير نواف الشعلان يدعونا للضيافة في قصر الامارة، فلبينا الدعوة وأخذنا أولا الى داره، وأكرمنا بالتمر الطيب والسمن الشذي، وعلمنا منه ان الأمير ذهب الى بلدة يقال لها «سكاكة» وان له نائبا يقال له عامر، وبعد أن استرحنا في منزله قليلا، سار بنا الى قصر الامارة الذي كنا نسمع ونحن بالبادية من البدو، بأنه يحاكي بفخامته قصور الشام، أو أنه القصر الذي خلعت عليه جمالها الأيام. دخلنا بوابته، فشاهدنا مدفعين من الطراز العتيق، يقال لأحدهما المنصور، غنمه الأمير نواف من ابن الرشيد حين اكتساحه الجوف منه، ثم صعدنا على درج مؤلف من نحو ثلاثين درجة، ودخلنا مجلس الأمير الخاص، فقابلنا نائبه عامر، وهو رجل طويل القامة، أسمر اللون، متقلد سيفا مفضضاً، وبعد أن حيانا، ومن مجلسه ادنانا، أمر بطعام فحضر التمر، والسمن، والبيض المقلي الذي لم نذقه منذ مفارقتنا الشام، فأكلنا وقضينا من الطعام الوطر، وغسلنا ولله الحمد يدينا بالصابون النابلسي المطيب. ثم شربنا القهوة البدوية، وسألنا عامر عن أمرنا ومقصدنا، فقلنا له: إنا من طلبة العلم الشريف وأهل الشام. وانما فررنا من جندية لا نطيقها لأنا من حملة الأقلام وأنصار السلام. فرحب بنا ووعدنا بمقدم الأمير نواف خيرا.

(الشرارات)

قبيلة كبيرة مبعثرة في بادية الشام، لم أجد أحداً من المؤرخين المتقدمين ذكرها بهذا الاسم، وأما المحدثون منهم فقد اختلفوا اختلاف تشريق وتغريب، فذهب الأمير شكيب

ارسلان في بحث «اكتناء عرب الشام» (١) الى أنهم من بني كلب، لأن نخوتهم بنو مكلب، ولأن التاريخ قد ذكر نزول كلب بأطراف البلقاء من الشام. وذهب صاحب الرحلة الحجازية (٢) الى أنهم فخذ من عبس التي كان لها في الجاهلية ذلك الجاه المنيع، وكانت الى القرن الثامن الهجري، قوية، فاعتدت على جاراتها، فنقم العرب عليها، وأوقعوا بها، فشتت شملها الى اليمن وغيره، ومن ثم ضعف أمرها، وهي التي انجبت مثل عنترة وعروة بن الورد، و يصدق عليهم في تشتتهم قول العرب: في كل واد أثر من ثعلبة (٣).

وعدهم المؤرخ البحاثة نعوم شقير في تاريخ سينا (٤) من قبائل هتيم، وذكر أنهم كثيرا ما يأبون دفع «الخاوة» لحماستهم وقال: «ولا يبعد أن يكون هتيم من سكان جزيرة العرب الاصليين» و يريد بالاصليين العرب البائدة كعاد، وطسم، وثمود وجديس.

أقول والله أعلم بحقيقتهم: ان الشرارات ولا ريب من قبيلة مجيدة يدل على ذلك منهم اليوم ما امتازوا به من الكرم على فقرهم، فقد سمعت من كثير من القبائل التي تخالطهم بأن الشراري اذا ضافه ضيف ولم يجد ما يقريه به غير ناقته الوحيدة قد يذبحها اكراما لضيفه ولا يبالي. وعرف الشراري في البادية بأنه سريع النجدة، منيع الحمى، شجاع، يستقتل دون أن ينهب ناقته الغازون. كما أنه قد عرف في بداية الشام بحدة لسانه. وسرعة جوابه، وقوة شاعريته البدوية، وأنه يضارع الصليبي بقوة دلالته، وكونه أهدى بطرق جزيرة العرب ومسالكها من القطا.

دومة الجندل (٥)

و يقال لها الجوف في أيامنا هذه، ثم يطلق الجوف على مجموع القرايا التي قاعدتها دومة

---

١ — وانظر تاريخ سيناء لنعوم شقير ٦٦٤، ومعجم القبائل ٢/٥٨٧

٢ — ص ٥١

٣ — أي هم كثير. ومثله في كثرة قبيلة حرب، وهم من خولان اليمن: اذا ضيعت اصلك فحرّب. أي قل انك من حرب لانهم كثيرون.

٤ — ص ٦٦٧ ومعجم القبائل ٢/٦٤٦ — ٦٤٨.

٥ — مقالة نشرت في عدد يناير سنة ١٩١٨ ص ٢٢ — ٢٧.

الجندل (١) ، كما تطلق تونس على القاعدة والعمالة التونسية. وكان العرب يطلقون على دومة وتوابعها كلمة القريات. قال أبو عبيد الله السكوني: (٢) من وادي القرى الى تيماء أربع ليال، ومن تيماء الى القريات ثلاث أو أربع. والقريات: دومة، وسكاكة، والقارة.

وقد نقلت دائرة المعارف البستانية ما كتب العرب عن دومة الجندل وترجمت ما كتبته عن الجوف غير عالمة بأنه ودومة الجندل شيء واحد. ولنذكر بايجاز ما ورد عن دومة الجندل في مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (٣) وهو مختصر معجم البلدان للحموي قال: دُومة الجندل بالضم و يفتح، وأنكر ابن دريد (٤) الفتح وعده من أغلاط المحدثين. وجاء في حديث الواقدي (٥): دوماء الجندل، قيل: هي من أعمال المدينة حصن على سبع مراحل من دمشق بينها و بين المدينة. قيل: هي في غائط (٦) من الأرض خمسة فراسخ، ومن قبل مغربه عين تنج، فتسقي ما به من النخل والزروع، وحصنها مارد، وسميت دومة الجندل لأنها مبنية به، وهي قرب جبلي طيء، ودومة من القريات من وادي القرى، والقريات دومة وسكاكة وذو القارة، وعلى دومة سور يتحصن به، وفي داخل السور حصن منيع يقال له مارد، وهو حصن أكيدر بن عبد الملك، صالحه النبي صلى الله عليه وسلم وأمّنه وكان نصرانيا (٧) .

وكل ما ورد في الوصف صحيح، فانها في غائط (٦) أو جوف من الأرض، وبها عين تشج، (٨) ومبنية بالصفاح من الجندل، وأكثر القرى مبنية باللبن، وشاهدنا أنقاض سورها العظيم، وحصنها المنيع الذي لا يزال البدو يلقبونه بمارد، وهو مشيد على رابية علوها نحو

---

١ ــ او دوماء الجندل عن الواقدي، نسبة الى دوماء بن اسماعيل عليه السلام، واضيفت للجندل لأن حصنها مبني به، وهو الصخر. وكانت مقرا للصنم «ود» وسدانته لبني و برة من كلب. انظر المعجم الجغرافي ٥٣٩/٢ ــ ٥٤٢ ومعجم ما استعجم (دومة).

٢ ــ معجم البلدان ٤٨٧/٢ ــ ٤٨٩.

٣ ــ من هذا المختصر نسخة في دار الكتب السلطانية بمصر لم يذكر بها اسم المختصر ولا عرفته دار الكتب، وقد سألت عنه صديقي البحاثة الفاضل السيد أحمد تيمور، فقال لي: لقد عثرت على اسمه في رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي، وهو عبد المؤمن الحنبلي، فجزى الله الصديق عن العلم خيرا (من الأصل).

قلت: الكتاب اليوم مطبوع، وربما كان بحاجة الى ان يحقق وان يعاد طبعه.

٤ ــ جمهرة اللغة ٣٠١/٢ وتابعه صاحب الروض المعطار ص ٣٩٠.

٥ ــ في الأصل الوافدي، تصحيف.

٦ ــ في الأصل غابط، تصحيف في الموضعين.

٧ ــ معجم البلدان ٤٨٧/٢ حيث الخبر وز يادة. وانظر حمد الجاسر ٥٣٧/٢ ــ ٥٣٩

٨ ــ في الأصل «تنج» والتصويب عن معجم البلدان في الموضعين.

عشر ين مترا، وعلوه نحو عشر ين مترا، و يقال إن نصفه الأعلى متهدم، وأنقاضه لا تزال حول القصر، وسكان دومة اليوم من قبيلة السرحان وغيرها من قبائل بادية الشام ونجد.

قال أبو عبيد الله السكوني: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء كانت به بنو كنانة من كلب. ومما ورد في معجم ما استعجم للبكري، طبع غوتنجن صفحة ٣٥٣ قوله: و يدلك أن دومة متصلة بدور بني سليم قول الكميت:

منازلهن دور بني سليم ... دومة فالأباطح فالشفير

قال: و بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا الى دومة، وأمّر عليهم عبد الرحمن ابن عوف، وعممه بيده وقال: «أغد بسم الله فجاهد في سبيل الله، تقاتل من كفر بالله، وأكثر من ذكر الله عسى أن يفتح على يديك فان فتح فتزوج بنت ملكهم» ففتحها وتزوج بنته تماضر بنت الأصبغ، فهي أول كليبة تزوجها قرشي فولدت له أبا سلمة الفقيه، وهي أخت النعمان بن المنذر لأمه، وكان افتتاح دومة صلحا، وهي من بلاد الصلح التي أدت الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) الجز ية، وكذلك أذرح وهجر، والبحران وأيلة.

قال ياقوت: وأهل كتب الفتوح (والحديث كذلك) مجمعون على أن خالد بن الوليد، رضي الله عنه غزا دومة أيام أبي بكر رضي الله عنه، عند كونه بالعراق في سنة ١٣، وقتل أكيدر، لأنه كان نقض وارتد، وعلى هذا لا يصح أن عمر رضي الله عنه أجلاه، وقد غزي وقتل في أيام أبي بكر. وقد روي أن أكيدر كان منزله أولا بدومة الحيرة، وهي كانت منازله، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب، وأنه لمعهم وقد خرجوا للصيد، اذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق الا حيطانها، وهي مبنية بالجندل، فأعادوا بناءها، وغرسوا فيها الز يتون وغيره، وسموها دومة الجندل، تفرقة بينها و بين دومة الحيرة، وكان أكيدر يتردد بينها و بين دومة الحيرة، فهذا يز يل الاختلاف. وأقول: ومما يؤ يد هذه الرواية ما سمعته في الجوف من نَواف الامير بأن مستشرقاً نمسو ياً [١] بحث عن آثار الجوف فوجد حجرا منقوشا عليه بلغة غير عربية، فلا يبعد أن تكون نبطية، كالكتابة التي وجدت في البتراء والرقيم من وادي موسى [٢] وفي الحجر.

١ — لعل المقصود هو الرحالة «الفنلندي» جورج أغسطس والآن، الذي زار شمال نجد سنة ١٢٦١ (١٨٤٥م)

٢ — ليس الرقيم في وادي موسى، وانما هو قرب سحاب من ضواحي عمّان

واستفدنا من هذه الرواية فائدة أخرى، وهي غرس الزيتون فيها قديما، وهي اليوم عبارة عن روضة مغروسة بالنخيل، وبها منه نحو سبعين ألف نخلة، يضرب بجودة ثمرها المثل، و يزرع في تربتها الرملية الصلصالية الحنطة والشعير ما يكفي السكان، و يزرع الدوميون أو الجوفيون من الخضر الباذنجان والطماطم، وبها صنف من القثاء يخال المرء أنه منسوب الى العمالقة، لأن طول الواحدة يبلغ مترا وأكثر، وقطرها نحو عشرة سنتميترات، وأرضها قابلة لزراعة سائر الخضر، ولغرس الأشجار المثمرة، وقد غرس الأمير نواف بستانا على طراز بساتين دمشق، فنما فيه التفاح واللوز والجوز والمشمش، ثم ذبلت أشجار البستان لجهل الفلاحين بأصول البستنة.

قال ياقوت: وقد ذهب بعض الرواة الى أن التحكيم بين عليّ ومعاوية كان بدومة الجندل، وأكثر الرواة على أنه كان بأذرح. وقد أكثر الشعراء من ذكر أذرح وأن التحكيم كان بها (١)، ولم يبلغني شيء من الشعر في دومة الا قول الأعور الشّنّي، وان كان الوزن يستقيم بأذرح وهو هذا: (٢)

رضينا بحكم الله في كل موطن	وعمرو وعبد الله مختلفان
وليس بهادي أمة من ضلالة	بدومة شيخا فتنةٍ عميان
بكت عين من يبكي ابن عفان بعدما	نفا ورق الفرقان كل مكان
ثوى تاركا للحق متبع الهوى	وأورث حزنا لاحقا بطعان
كلا الفتنتين كان حيا وميتا	يكادان لولا القتل يشتبهان

وقال أعشى بني ضور من عنزة: (٣)

أباح لنا ما بين بصرى ودومة	كتائب منا يلبسون السنورا
اذا هو سامانا من الناس، واحد	له الملك خلا ملكه وتفطرا

---

١ — وتقع جنوب البلقاء، على حرف البادية، ومن أشعارهم قول ذي الرمة يمدح بلال بن أبي برده بن أبي موسى الاشعري:

أبوك تلافى الدين والناس بعدما	تساءوا، وبيت الدين منقطع الكسر
فشد اصار الدين أيام أذرح	ورد حروبا لقحن الى عقر

وكان الأصمعي يلعن كعب بن جعيل لقوله في عمرو بن العاص:

كأن ابا موسى عشية اذرح	يطيف بلقمان الحكيم يواربه

وغير ذلك من الشعر. انظر معجم البلدان الأردنية والفلسطينية (أذرح) عن ياقوت ١/١٣٠.

٢ — معجم البلدان ٢/٤٨٨، ٤٨٩.

٣ — نفس المرجع والصفحة.

نفت مضر الحمراء عنا سيوفنا　　كما طرد الليل النهار فأدبرا

وفي كتاب الخوارج مر عبد الله بن أبي ليلى مع أبي موسى الأشعري بدومة الجندل فقال: حدثني حبيبي أنه حكم في بني اسرائيل في هذا الموضع حكمان بالجور، وانه يحكم في أمتي في هذا المكان حكمان بالجور، قال: فما ذهبت الا أيام حتى حكم هو وعمرو بن العاص فيما حكما قال: فلقيته فقلت: يا أبا موسى قد حدثتني عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما حدثتني فقال: الله المستعان.

أقول والآبار الواسعة لا تحصى في دومة كثرة، وعمق البئر من سطح الأرض الى سطح الماء بضع قامات، وعمق الماء أيضا كذلك، وقطر فوهة البئر نحو خمسة أمتار أو اكثر، فالمياه غزيرة جدا تحت الأرض، يظنها المتخيل بحرا، ولو نصبنا على هذه الآبار روافع الماء لأجرينا في دومة نهرا، فان الماء ينزع اليوم بصنف من الدلاء الكبيرة يقال لها السواني، وهي من اختراع العرب اسلافنا الذين برعوا في الفنون المائية البراعة كلها، ولكثرة ما تنزعه هذه الدلاء في الساعة من الماء، اعتاد شعراؤنا المتقدمون والأدباء أن يشبهوا الدموع بها فقالوا: دموع على المغاني كغروب السواني. وقد نصبوا على كل بئر عدة بكرات كبيرة لرفع الغروب (١)، وكل غَرْب بحجم القربة يرفع ببكرة، والغرب او الدلو مربوط بحبلين حبل من اعلاه، وحبل من فم الدلو الذي يكون مرفوعا والدلو صاعدة، فاذا وصلت اعلى البئر ارتخى حبل الفم، فنزل ما في الدلو من الماء. والقوة الرافعة في كل سانية في السواني هو البعير، يجر حبال بكرات السانية نازلا في أرض منحدرة حتى تصب الغروب ماءها(٢) في الساقية ثم يعود الى فوهة البئر، والدلاء تعود الى سطح الماء وهلم جرا. وهذه السواني لا تزال مستعملة على شاطيء الفرات. وللماتحين (٣) بالسواني مطربات الأغاني.

ولتمر الجوف شهرة ذائعة، وهو ذو أصناف جمة لذيذ جدا لم أذق، قبل أن رأيت الجوف في حياتي، تمرا ألذ منه، وأظن أن النابغة كان في دومة اذ وصف التمر بقوله:

صغار النوى مكنوزة ليس قشرها　　اذا طار قشر التمر عنها بطائر (٤)

---

١ — جمع غرب، وهو قربة كبيرة مفتوحة، تكون من جلد بعير أو ثور.

٢ — في الأصل «ماؤها» وهو جائز على البدلية من الغروب اذا كانت نائب فاعل.

٣ — الماتح هو الذي ينزع الدلو من البئر.

٤ — ديوان النابغة (ط الجزائر ١٩٧٦) ص ١٢٨ وظن التنوخي قريب من اليقين ان لم يكن صحيحا، ذلك ان النابغة قال الأبيات في غزوة قام بها النعمان بن الحارث لبني حُنّ من عذرة الذين التحم معهم الغساسنة وانتصروا على النعمان. ومواطن هؤلاء وادي القرى وشمال الجزيرة العربية.

كانت هذه القريات فيما مضى، وقاعدتها دومة، تابعة لامارة ابن الرشيد النجدية، فحاربه الشيخ نواف بن الشيخ نوري الشعلان، شيخ الرولة من عنزة سنة ١٣٢٦ هجرية، وكان يومئذ الشيخ نوري في سجن سامي باشا الفاروقي في دمشق، فكتب الى ابنه بتهديد الحكومة التركية: أن يكف عن مهاجمة الجوف، فلم يفعل نواف، ولم يرجع عن عزمه، ومكث نحو سنة يهاجم دومة حتى فتحها عنوة، وصار من ذلك اليوم يلقب بالأمير. وقد دافع عن امارته دفاع الأبطال، واستتب فيها الأمن ونشر لواء العدل عليها. ويجلس كل يوم مقدار ساعة في مجلس عام يحضر فيه مئات من القرويين والبدو، و يتحاكم أمامه الخصوم فيحكم بينهم بالعرف البدوي وقد حضرت مجالسه مرارا، ودققت في أحكامه فوجدتها موافقة للعقل ومقنعة للوجدان، وكان يحيل من الأحكام للقاضي الشرعي ما يتعلق به من الأحوال الشخصية. وقد كتبت له بالقلم العريض: «وإذا حَكَمتم بينَ الناسِ أنْ تَحْكُموا بالعدل» (١)، فعلقها في مجلسه فوق رأسه.

والأمير نواف شديد التمسك بالدين، فلا يترك الصلوات الخمس، و يأمر قومه بها، و يؤدي صلاة الجمعة في مسجد دومة الجامع القديم عهده، و يقال إنه عمري بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولا يزال، كسائر المساجد في صدر الاسلام، مسقوفا بالجريد ومفروشا بالحصى.

وللأمير نواف ولع شديد بسماع العلم، فقد قرأت له شيئا كثيرا من التاريخ والحديث، وقضينا ليالي في قراءة ألف ليلة وليلة وغيرها من أخبار العرب وأشعارهم، وقرأت له مرة قصيدة عمرو بن كلثوم المعلقة، فكان يتمايل طربا لمعانيها، لا سيما ما يتعلق بالحماسة، و يلتفت الى حاشيته قائلا: «اسمعوا ايش تقول أجدادنا العرب».

وكنت أسأله عن كثير من الكلمات اللغوية فيجيبني بلا تردد عن معانيها، لأن البدو لا يزالون يستعملونها مثل رحى، وثفال ولهوة، وقرى، ومن قول ابن كلثوم:

متى ننقل الى قوم رحانا	يكونوا في اللقاء لنا طحينا
يكون ثقالها شرقيَّ نجد	ولهوتها قضاعة أجمعينا
نزلتم منزل الأضياف منا	فأعجلنا القرى أن تشتمونا
ألا لا يعلم الأقوام أنا	تضعضعنا وأنا قد ونينا
ألا لا يجهلن أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا(٢)

١ — سورة النساء الآية ٥٨.

٢ — شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٤٦، ١٤٧ مع اختلاف في ترتيب الأبيات.

ولقد كان يهتز لروي كل بيت و يقول: إي بالله!

و يطبخ الأمير قهوته على نار الغضا، التي تضارع بحرارتها ومدة دوامها، فحم السنديان في ديارنا، وتفوقه بعدم دخانها ورائحتها، و يعطر قهوته بالعنبر يضعه في أسفل الفنجان. وللبدو قصائد طو يلة في وصف القهوة (١) ومدحها، وهم يتقنون طبخها جد الاتقان بحيث تغني الرشفة عن رشفات من قهوتنا، أو بالحري من القهوة المدنية. ومن اهتمام الأمير بشؤون امارته أن بعض بيوت من بدو عنزة، كانت نازلة علي العبد (٢)، فبيتهم ركب من شمر وغزاهم ليلا ونهب جمالا لهم، فما وصل الصريخ الى الجوف في منتصف الليل حتى ركب الأمير وحاشيته على الرغم من الالحاح عليه بالاستراحة حفظا على نفسه، ولم يعد الا ثاني يوم، ولولا أنهم أضاعوا الأثر لفتكوا بالعدو، وأعادوا المنهوب، وهكذا كان لسان حاله لسان سلامة بن جندل القائل:

انا إذا ما أتانا صارخ فزع ... كان الصراخ له قرع الظنابيب (٣)

(في دومة الجندل)

وفي دومة الجندل من الصناعة حياكة العباءات المشهورة بالجوفية، وصناعة السيوف وأغمدتها المفضضة والمذهبة. و يأتي الى الجوف تجار من دمشق و بلدة قبيسة (٤) من العراق. وفي سكاكة نحو من عشرين تاجر اصلهم من النجف وغيرها، يبيعون للبدو التمن (الأرز) والأقمشة والتمور، و يشترون السمن، والاغنام، والحمير ليرسلوها الى العراق. وفي الجوف قاض لا يعرف سوى بعض المسائل الفقهية، وهو أعشى البصر (٥) لا يستفيد من الكتب الجمة الموروثة عن سلفه شيئا، فان الكتب موجودة في صندوق كبير، (٦) بعضها مخطوط و بعضها مطبوع في مصر أو الهند، وقد أكل منها الأرضة والغبار ما لم يأكل منها الليل

---

١ ــ يبدو أن العرب في كل مكان كانوا يفعلون ذلك، وقد سمعناهم يفاضلون بين الشاي والقهوة في تهامة، وفي غات من الصحراء الكبرى.. حتى أحمد شوقي لم يفته ذلك. ومما نحفظه من أشعار بدو جنوب الجزيرة فيها:

دلة ما فيها سبع من الهيل ... مثل عجوز خبيث نسمها

٢ ــ عبد الجوف، و يقع الى الغرب من دومة الجندل، و يشاهد منها رأي العين. وهناك عدة أماكن تحمل هذا الاسم «العبد» حمد الجاسر ٣/٨٨١.

٣ ــ شرح المفضليات للطيب التبريزي ط دمشق سنة ١٣٩١هـ ٢/٥٨٨

٤ ــ أعتقد أن عائلة «القبيسي» من أهل القصيم، تنتمي الى هذه البلدة العراقية.

٥ ــ هذا الأسلوب غير مقبول. لأن العشا لا يكون الا في البصر، ولذا فهو حشو.

٦ ــ يذكرني هذا الخبر بما وقفت عليه في الزاو ية الاسلامية بغات جنوب غرب ليبيا، وقد نشرت المجلة الثقافية للجامعة الأردنية في عددها الثالث ما عرفنا به تلك الخزانة ومخطوطاتها.

والنهار، واكثر تلك الكتب سلفي من مؤلفات قامع البدع والخرافات الامام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وقد كتبت بأسماء هذه الكتب القيمة جريدة ضاعت مني بضياع رحلتي المطولة.

وللأمير نواف ولد يقال له سلطان، جاوز العقد الأول من عمره، وهو في منتهى الذكاء، علمته شيئا من تاريخ قومه العرب، وما كان لهم من مجد وحضارة، والى أية دركة انحطوا اليوم، وتدل الفراسة على أنه سيكون له في جزيرة العرب شأن كبير.

وهو يتعلم كسائر الفتيان الفروسية، و يتعود ركوب الخيل مسرجة وأعراء (١) . وما من عربي الا ويحسن الركوب على الخيل عارية بلا رُكُب (جمع ركاب) وكانت الشعوبية تعيب العرب بذلك، وأظن شعوبية هذا العصر قد رجعوا لرأي العرب، فان فن الفروسية الحديث قد جعل من وسائل الثقافة بالفروسية امتطاء الجياد أعراء، لما تؤثره في انماء العضلات الضامرة في الأفخاذ. ثم ان العرب لم تستعمل الركب الا في أيام الازارقة، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «لا تخور قوى ما كان (٢) صاحبها ينزو أو ينزع» أي لا تهن قواه ما دام ينزو في السرج من دون استعانة بركاب، وما دام ينزع في قوسه.

وثروة الجوفيين من النخيل، وهم يتعهدونه بالري والخدمة على الدوام، والنخل طويل الجذور جدا، وقد يستغني عن الماء مدة طويلة، وله جلد على تحمل غمره بالماء مدة شهرين، كما يحصل في البصرة. والأرض السطحية في سكاكة رملية، ولكن جذور النخيل الطويلة تخترق الطبقة الرملية الى الطينية الصفراء، كالنخل السماني في رشيد مصر، فان أرضه رملية بحتة، وقد راعني منظر نخيل الجوف البهيج عند وصولي فقلت هذين البيتين:

لعمري لقد زرت الديار وأهلها وطفت بها حتى دعيت بطواف
فلم أر مثل الجوف يزهو بنخله ولم أر فيها حاكما مثل نواف

لم أشعر ذات يوم الا وأخي الجلال الشهيد يبشرني قبيل الظهر بقدوم بعض الاخوان، فأطللت من النافذة على ميدان قصر الامارة، واذا بجمال تناخ مجعجعة فهرولنا الى الميدان، فاذا نحن بالأمير عارف الشهابي، وعبد الغني العريسي، وتوفيق البساط، أحد ضباط الاحتياط، والشاعر البيروتي عمر حمد، فبعد المقابلة والتقبيل اخذناهم الى غرفتنا الخاصة، التي أعدها لنا الأمير نواف، وطفقوا يحدثوننا، رحمهم الله (٣)، عما لقوه في هربهم من النصب

١ — جمع عارية، غير مسرجة.

٢ — بمعنى دام.

٣ — لأنهم أعدموا في ٢١.٨.١٩١٥.

والشقاء والأهوال، وكذلك فعلنا نحن، بأن قص كلانا عليهم ما قاسى من المتاعب حتى نجا من المعاطب.

وحدثني الأمير عارف أنهم استجاروا في بادىء أمرهم بالمغاوشة من الدروز فأجاروهم، وقد بثت الحكومة التركية عليهم العيون، وأخرجت لالقاء القبض عليهم الجنود، وكانوا ينتقلون برأي الدروز من مخبأ الى آخر.

ونشرت الحكومة في جبل حوران الاعلانات تنذر بها الأهلين بأشد العقاب، يقع على من تجدهم في داره، ورغبتهم بالجائزة المالية ينالها من يطلع الحكومة على مقرهم. وقد قال لي الأمير الشهيد ان كثيرا من فقراء الدروز البائسين، كانوا عالمين بهم، ولم يخبر الحكومة احد بمقرهم، مع عوزه الشديد. وقد اضطروا ان يختبئوا مدة باللجا (١) ، فاتفق أن فخري باشا حاصره بجنوده وأحدق به من كل جانب، ولو لم يخاطروا ليلا باختراق نطاق الجنود لوقعوا في فخاخهم، وما وجدوا الى الفرار سبيلا.

أخبرني الأمير نواف أنه لما اجتمع في شوال سنة ١٣٣٣ بجمال باشا وفخري باشا في القنيطرة، أخبره فخري باشا على حدة، أنه يريد أن يهاجم اللجا، بيد أنه يخشى أن يساعد الدروز عرب اللجا، ولهذا يريد فخري أن يعينه في حملته. قال لي نواف: ولكي أخلص من مكيدته، ولا أشارك تركيا في اذلال العرب، اشرت عليه بأن الأولى أن أنزل بعربي جنوبي حوران، حتى اذا رأيت الدروز هبطوا الى اللجا لمساعدة أعرابها حملت عليهم، فينشغلون بي، وأكفهم عما يريدون، وبهذه الحيلة البدوية كفاني الله شره، واعتصمت بالبادية، وما زلت أجوبها حتى بلغت الجوف.

نصحت ورفيقي المرحوم جلال الدين لاخواننا الفارين بأن لا يذكر أحد منهم للأمير نواف حقيقة حاله، وأنه محكوم عليه بالاعدام، وليفعل كما فعلنا قائلا: انه جندي بسيط لم يحتمل مشاق الجندية واهانتها، فلاذ بالفرار. وذلك لأن الأمير نوافا يخشى جواسيس ابن الرشيد أن تخبر حكومة دمشق، فتتوتر العلاقات بينه و بينها، ولا يقوى وحده قبل قيام الشريف على محاربتها، وعربه الرولة مضطرون أن يمتاروا حبوبهم من حوران، و يشتروا ألبستهم من دمشق، والا فإنا عرفنا روح نواف جد المعرفة، وأنه يبغض الأتراك من صميم فؤاده، لمساعدتهم عدوه اللدود ابن الرشيد بالسلاح والمال.

قابل الأمير نواف الاخوان بالترحاب، و بعد مدة بعث الي رسولا لمقابلته، قال لي

---

١ ــ الحرة التي تمتد الى الجنوب والشرق من جبل العرب.

علمت من صاحب العباءة المطرزة (يريد عبد الغني العريسي) أنه صاحب جريدة المفيد، ومحكوم عليه كسائر صحبه بالاعدام، فمصلحتي تقضي على أن يسافروا من الجوف، وأن تعلم أن ليس ذلك بخلا مني، اذ في كل ليلة يأكل على مائدتي خلق من الضيوف كثير. ولما علمت إصرار الأمير، عدت الى الاخوان واطلعتهم على جلية الأمر، فاستاءوا كثيرا، ولا سيما الأمير عارف رحمه الله، شاكين نفاد دراهمهم، فرجعت الى الأمير نواف، وقلت إنهم قصدوا أبا سلطان (كنية نواف) من دمشق، فلا يليق أن يضاموا، وقد قلت دراهمهم، وكلت رواحلهم، والطريق مخيف، بعيد الشقة، وهم بلا دليل فكيف يسافرون؟

أجابني أني أرضخ لهم بما يسد عوزهم من الدراهم، وأبدل لهم الراحلة الضعيفة، وأزودهم بالزاد الكافي وأرسل معهم الدليل الخِرّيت (١)، فليكونوا مطمئنين. وهكذا رجعت وأخبرت الاخوان بما قاله الأمير، فهدأ روعهم وعزموا أن يرحلوا الى الحجاز، فقلت لهم: الأولى أن تسيروا الى العراق، وتلبسوا الألبسة الرثة، وأن تبذلوا جهدكم بالتفرق، لأن اجتماعكم يوجه أنظار البدو وأطماعهم اليكم، وقد رأينا بالتجربة أن الوحدة في البادية أنجح للقصد وأنجى. فقال عبد الغني: قد اتفقنا في دمشق والأمير فيصل على القيام اليه، ولذلك وجهتنا الحجاز، ومقصدنا الأمير فيصل، أما الأمير عارف فكان يخالفه في بعض هذا الرأي.

للترك في وسط جزيرة العرب مخفر بدوي عثماني، وهو للأمير سعود بن عبد العزيز الرشيد، صاحب حائل (قاعدة نجد)، الذي اتفقت عليه ألسنة البدو أنه يأتمر بأوامر أخواله السبهان، فأضاع قسما كبيرا من أمارته، وانقلبت عليه بعض قبائل شمر وشيوخها، كابن طوالة، فكنت أرى أن من مصلحة الجزيرة والعرب، أن يدمر هذا المخفر المضر، فأغريت الأمير نوافا كثيرا باكتساح حائل بنفسه، أو باتفاقه مع الأمير ابن السعود العنزي مثله.

واتفق مرة أن طلب مني نواف أن استفتح له بالقرآن، فأخذت المصحف وفتحته بعد قراءة الفاتحة فخرجت آية «فاصبرْ إنّ العاقبةَ للمُتقِين»(٢). فقرأتها له قائلا: اصبر يا نواف، فستفتح حائل، فالعاقبة للمتقين أمثالك. ونظمت بعدئذ قصيدة نونية ضمنتها جميع غزواته، وأشرت له فيها للاستفتاح ومطلعها:

غيري يميل لشرب بنت الحان ... ولضرب أوتار وعزف قيان

١ — العارف بالمسالك والطرق.

٢ — سورة هود الآية ٤٩ وفي الأصل «واصبر فان» صححناه.

أصبر فعقبى المتقين جميلة   قال الإله إليك بالقرآن
أيام تفتح حائلا و ينيلك الر   حمن ملكا ثابت الأركان
فتذل قوم ابن الرشيد ورهطه   وتدير دائرة على سبهان

و بعد مدة سافر الاخوان مع دليل شراري، ولم نسمع لهم خبرا الا بعد نحو شهر، اذ رجع الدليل بكتاب بخط الأمير عارف رحمه الله شارحا ما لقوه من المصاعب، وأن شهابا شيخ عرب الفقير، الذي أخذوا له كتاب وصية الأمير نواف، وعدهم بايصالهم الى المدينة بالسكة الحديدية بحماية أحد عبيده، و يركبون القطار من محطة مدائن صالح القريبة من مخيم عرب الفقير.

وممن فر الى الجوف «مر يود» شيخ جباتا الخشب من قرى جبل الشيخ. وذلك أن أحد الأسافل الذين أحسن إليهم، كتب الى الحكومة تقريرا بأنه يهرب القمح إلى الانكليز كذبا وبهتانا. وقد أوعز نواف أيضا اليه بالسفر، فاقتفى آثار الاخوان السابقين. وسار معه خاله والمرحوم جلال الدين. ولقد بكيت لفراقهم بكاء مرا لم أبك في حياتي مثله. لأني كنت شاعرا بخطر سفرهم هذا. وقد خيرني الأمير نواف بين الاقامة لديه و بين السفر الى العراق. فاخترت الأخيرة وقبل سفري من سكاكة بلغني القاء القبض على عبد الغني العريسي وصحبه في مدائن صالح، ورجوع الأخ جلال ورفيقيه الى الجوف بحالة يرثى لها. بعد أن علموا بالقاء القبض على اخوانهم المرحومين. وأرسلوا إليّ خبراً بأنهم ذاهبون الى الأمير نواف المتبدي، وقد رجعوا الى رأيي بالإعراق، وان الملتقى البصرة إن شاء الله.

ثم نعت لنا جريدة المقطم، وأنا يومئذ في البصرة، المرحومين: الأمير عارف الشهابي ورفقاءه الثلاثة وانهم أعدموا في بيروت شنقا.

والمشنقة كما تقول عامة سورية «مرجوحة الأبطال» وقد ألقي القبض عليهم في مدائن صالح كما ذكرناه رحمهم الله. و بلغني وأنا في مكة أن المرحوم جلال الدين، وأحمد مريود، وخاله، بعد أن اجتمعوا في البادية بالأمير نواف أشار عليهم بأن يسيروا معه الى أبيه النوري. وعند وصولهم الى مضربه وجدوا فيه الأمير طاهرا الجزائري فارا من الحكومة.

وقال الراوي: وان هؤلاء المستجيرين ترجوا من النوري الشعلان. أو ان نوري أشار عليهم بماله من الدالة على جمال باشا. أن يطلب لهم العفو منه. فيرجعوا الى أوطانهم. وأنه أبقاهم في قرية عذراء (عدره) (١) . ونزل الى دمشق. وقابل الباشا. فأقسم له يمينا غموسا

١ — لم يذكرها حمد الجاسر، ولعلها في الحدود الأردنية أو السورية

و بالشرف العثماني العسكري أنه لا يمسهم بسوء وأرسل عربة وثلة من رجال الدرك الى عذراء رجعوا منها بالفارين في العربة وقد أحدقوا بها حتى بلغوا دمشق، فوضعوهم في مكان محفوظ، و برجمال بيمينه مدة اقامة النوري في الفيحاء، و بعد سفره منها حكم الديوان العرفي على الأمير طاهر بالسجن في القلعة عشر سنين، وعلى المرحوم جلال الدين البخاري بالاعدام شنقا في بيروت، زعما أنه شوّق البدو الى الثورة، وترك أحمد مريود البريء كاخوانه لعدم ثبوت الدعوى عليه. لقد احترق، وذمة العرب، قلبي على صديقي ورفيقي الجلال الشهيد الذي كان في مطارح النوى والتعاسة يؤاسيني و يسليني و يتوجع لي.

فياعين جودي بالبكاء على أخي الـ ـــوفاء جلال الدين لا تذخري وسعا
لقد كان يرجى في الشدائد نفعه وقد قل ان يجدي بها أحد نفعا
وفي ذكي مخلص قد عهدته سريعا لداعي المكرمات متى يدعى
سقى الله قبرا قد رعى العهد ربه وحيا الحيا ذاك الجلال الذي انعى

سكاكة (١)

كتب لي الأمير نواف كتاب وصيته للسيد مهدي النجفي كبير التجـــار في سكاكة، وذلك ليرسلني مع القافلة الذاهبة لاشتراء التمن من العراق، كما أوصى الأمير بي، جزي خيرا، حاكم سكاكة المعين عليها، واسمه الغثيان، أحد افراد آل الشعلان، وهو شاب. و يوم السفر ودعت سمو الأمير، وسرنا صباحا وانا رديف الغثيان على ذلوله، وكان معنا بعض أعيان سكاكة، ولم نبلغ حمى سكاكة الا قبيل العصر، بعد أن جزنا بين قرية قارة، وكان قديما يقال لها ذو القارة (٢) أيضا، و بين قرية الطوير (٣) وكأنها تصغير طور، لم يرد اسمها بين القريات التي ذكرها السكوني (٤).

وسكاكة (٥) بضم السين واقعة شمال الجوف، وهي بسيط من الأرض في جوف منخفض محاط، كدومة الجندل، و بالروابي والآكام، ولذلك كانت طيبة المناخ، عذبه، واسعة الطرق، كثيرة الحدائق النخلية. و بعد أن انخنا الرواحل في حصن الامارة توافد أهل

---

١ ــ عدد ابريل سنة ١٩١٨ ص ٢٤٥ ــ ٢٤٩.

٢ ــ معجم البلدان ٢٩٥/٤ «احدى القريات التي منها دومة الجندل وسكاكة، وهي اقلهن عددا» وقال حمد الجاسر ١٠٥٧/٣ انها الى الجنوب من سكاكة بما يعادل ١١ كيلا

٣ ــ حمد الجاسر ٨٣٨/٢ «تعتبر البلدة الرابعة» في اقليم الجوف، وتقع جنوب بلدة سكاكة و بينهما ستة اكيال.

٤ ــ ولا غيره من المتقدمين.

٥ ــ معجم البلدان ٢٢٩/٣.

البلدة للتسليم على شيخهم الجديد، ومن جملة المسلّمين كان السيد مهدي، فعرفني به الغشيان، وأوصاه بي، وأعطيته رسالة الوصية، ثم انتقلت الى داره، وبقيت شهر ربيع الأول مكرما بضيافته، وكأني من آل بيته. وبه تعرفت بسائر اخواننا العرب من تجار البلدة الألى اكرموني ــ بارك الله بهم ــ جدا. وعثرت لديهم على نسخة من ديوان شاعر قريش الشريف الرضي، فكنت اقرأ لهم المرقصات من قصائده العصماء، وقد ترنمت في رحلتي بـ إ قصائد هذا الديوان النفيس.

ولهؤلاء التجار في سكاكة جنائن من النخيل، وبينهم تاجر من قبيسة، وكان السكاكيون يصلون الجمعة في ميدان متسع من الأرض، لأن مسجدهم كان يرمم يومئذ، فكان الخطيب يخطبهم واقفا بلا منبر، وهو لا يحسن العربية، فيلحن كثيرا، وهو مثل خطيب دومة ــ كلاهما لا يذكر السلطان التركي في خطبته ولا يدعو له، ولا يعترف بخلافته، وهما يدعوان الله بأن يصلح الأحوال ويحسن المآل.

واختلف مرة قاضي سكاكة وقاضي الجوف في مسألة شرعية تتعلق بالفرائض، فاجتمعا في الجوف، وانتدبني الأمير نواف لأكون حكما بينهما. وأكثر عرب القريات حنابلة يعظمون الشيخ محمد بن عبد الوهاب الحنبليّ، جداهفهم لذلك أقرب الى الفطرة وأبعد عن الخرافات. وفي سكاكة طائفة كبيرة من سكانها يقال لهم القرشا نسبة الى قريش، كما يقال، وهذا لا يبعد لأن قبيلة قريش تفرقت أيام الفتوح في الآفاق.

والسكاكيون أسلم أجساما، وأعظم آفاقا من الدوميين، فترى فيهم الوجوه المقمرة الصبيحة، والأبدان الضخمة الصحيحة، والبدويات الرعابيب بحسن غير مجلوب[1]. وبما أن سكاكة غير مسورة ولا حصينة كانت عرضة للغزاة والمهاجمين، فاتخذ كل سكاكي بيته حصنا حفر فيه بئره وملأه بالمؤونة، والذخيرة، فحق عليه المثل الانكليزي القائل: «بيت الانكليزي قلعته» وبيوتهم مشيدة باللبن، مدعومة بشجر الأثل المتين، الوارد ذكره في شعر العرب كثيرا، وقد شاهدته لأول مرة في دومة الجندل وسكاكة، وارتفاع الشجرة بالغ نحو أربعة أمتار[2]، وهي تحكي شجرة الطرفاء الا أن قطر جذعها يبلغ نحو عشرين سنتيمترا.

---

١ ــ يشير الى قول المتنبي:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

ديوانه ص ٤٢٨ (شرح اليازجي).

٢ ــ وقد ترتفع اطول من ذلك، رأيناها في بيشة والصحراء الكبرى.

عودني السيد مهدي شرب القهوة العقيلية صباحا، قبل تناول طعام الفطور، وقد صرت ألتذ بها جدا حتى قلت في وصفها ذات صباح هذه الأبيات:

كل مر من الشراب كريه ... غير بنت الدلال (١) والمحامس
قهوة توقظ السكارى ولا تسكر يقظى كقهوة الجلاس
تلك بنت الدلال تحيي عقولا ... غير بنت الدنان تردي بكاس
فاتركوا الخمر إن تكونوا رجالا ... كي تعيشوا في الناس مثل الناس

وفي أوائل ربيع الآخر، عزمت مع الركب الصليبي على السفر، وقد قدم هؤلاء الصلبة بأباعرهم الى سكاكة أواخر ربيع الأول لاشتراء التمر، ثم يعودون لمنازلهم في البادية، ومنها يذهبون الى العراق، لينقلوا أحمال التمن الى سكاكة والجوف، وكان كبير الركب يقال له بريكان، فأوصاه بي السيد مهدي الايصاء كله، وشارطه ان يوصلني الى الشفافية (٢) بأجرة ثلاث (٣) مجيديات، وقد لبثت بين ظهرانيهم، حتى بلغت الفرات، نحو شهر، لأنهم مكثوا في منازلهم مدة أسبوعين حتى تكامل الركب، واستعدت العير للإعراق، ولقد تفاءلت باسم بريكان خيرا، وقلت: أبرك طالع وأيمن طائر، ان شاء الله.

زودني السيد مهدي بالتمن والتمر، وودعني وأقرباؤه الى ظاهر سكاكة ثم ركبت بعيري وسرنا مشرقين، وبعد فرسخ من المسافة، لاقينا السكاكيات يحتطبن من أشجار الغضا الكاسية الرمال والتلال، فعجبت جد العجب لنشاط حمالات الحطب، وقوة بنات العرب، ولم نزل نواصل السير والسرى، ونغالب النصب والكرى، حتى بلغنا في المرحلة الثالثة مخيم الصلبة او الصليب حيث اهل العير نزول.

(الصلبة)

يلفظها البدو بسكون الصاد وفتح اللام والمعجمة، وقد رأيت للفاضل سليمان أفندي البستاني مقالة عن البدو مفيدة في المجلد الثاني عشر من المقتطف(٤) ، قسم فيها البدو الى ثلاثة أقسام: البدو كالرولة، وشمر. ونصف البدو وهم الذين «ينزلون على مجاري الأنهار

---

١ — الدلال في لغة البدو أباريق نحاس تغلى القهوة فيها وتصنع في العراق والشام، والمحماس وزان مفتاح من حمس اللحم قلاه، يحاكي المقلاة المتخذة من الحديد (من الاصل).

٢ — من أراضي العراق.

٣ — في الأصل ثلاثة وهو خطأ.

٤ — الجزء الثالث من السنة الثانية عشرة، الحلقة الأولى ص ١٤٤، ١٤٥.

الكبيرة، يعيشون في بيوتهم الشعرية أو أكواخهم المصنوعة من القصب وجريد النخل، والبردى، يزرعون ما جاورهم من الأرض، و يظلون فيها، حتى اذا اجدبت المنابت، او طابت خواطرهم منها هجروها الى منازل أخرى، وعاودوها بعد حين. ومنهم قبائل المنتفق على الفرات، و بنو أسد قوم الأخطل، و بنو لام الذين ينتمي بعضهم الى الدروز على دجلة، و بنو تميم والمعدان على شط العرب، و بنو كعب على كارون في بلاد فارس».

وذكر أن الصلبة هم بدو البدو، وأنهم أوروبيو الأصل من دم أفرنجي. قال: «ولا أقرب الى الظن من أنهم من بقايا الصليبين الذين تشتتوا بعد أن مزقت شملهم دولة الأيوبيين والمماليك والتتر، فالظاهر أن طائفة منهم التجأت الى بادية الشام، وامتزجت بأهاليها، وجنسها الزمان بجنسها وعلى ذلك أدلة منها:

أولا: كثرة العيون الزرق فيهم بخلاف العرب.

ثانيا: امتلاء الوجه ووفرة الشعر فيه.

ثالثا: اذا سألتهم عن أجدادهم قالوا الفرنك.

رابعا: عدم انتمائهم الى مذهب مخصوص.

خامسا: ولئن كان الزمان فعل فيهم فعلا قاطعا فهم لا يزالون أقل سمرة من سواهم.

سادسا: اختلاف هيئة معيشتهم عن سائر قبائل البدو.

وقال: (١) ومن غريب ما شهدته فيهم مباينة بيّنة في منطقهم، وارتخاء كثير في لفظهم، وهو أشبه بلفظ أهالي جنوبي لبنان، ولهم تعبيرات لا يعرفها البدو ونعرفها في سورية ولبنان، فمن اصطلاحهم في التحبب ان يقولوا «يا حزني» وفي التقرب ان يقولوا «يا عيني» وفي الاستنجاد «دخلك و يابيي و ياخيي وكلها غير مستعملة بهذا المعنى على هذا الوضع عند عرب البادية» الى أن قال: «ولا يعتمدون على اقتناء الابل والخيل، بل عندهم الأتن ينقلون عليها بيوتهم اذا أرادوا الرحيل».

وحبا بخدمة العلم اذكر ما شاهدته وعلمته عن الصلبة، فقد أقمت بين ظهرانيهم في البادية شهرا كريتا (٢)، لم يلفت نظري كثرة العيون الزرق فيهم، ولا وفرة الشعر، ومنهم ممتلىء الوجه ونحيفه، وامتلاء الوجه كثير في عرب السرحان، و بني صخر، والقرى البدوية كدومة الجندل وسكاكة، وعلمت انهم يختلفون في اجدادهم، فتارة يقولون: الفرنك، واخرى الانقريز أي الانكليز، وسائر العرب يلقبونهم بذلك، وأما كونهم لا ينتمون لمذهب

١ — المرجع السابق ص ١٤٥.

٢ — أي كاملا.

مخصوص، فأكثر قبائل البدو الأميين كذلك، فالصخري أو الرو يلي مثلا، لم يسمع أحدهما باسم الشافعي، أو الحنفي، ولا بمالك ولا ابن حنبل، ولو سألت بدو يا أو أحد الصلبة عن دينه لأجابك: الله ومحمد رسول الله، فبعض البدو يجهل الا تقان لأميته، ولا في دينه، فلا يحسن الصلاة ولا التيمم أو الوضوء. وأن حفظ شيئا من سور القرآن القصيرة فيحفظه بغير ما أنزل؛ مصحفا أو محرفا، مع عدم مراعاة الترتيب في الآيات.

وألوان الصلبة كألوان سائر البدو، و بينهم الأسمر والضارب بلونه الى البياض، ولا يختلفون بهيئة معيشتهم عن سائر قبائل البدو، لا في طعامهم وشرابهم، ولا في مخض الزقاق، وخبز الرقاق، ولم يرثوا من أجدادهم الأورو بيين ولا عادة واحدة، فانهم يختتنون و يتزوجون حسب عوائد البدو، و يطلقون و يعددون بين الزوجات. وأعرف أن بر يكان الصليبي، الذي كنت ضيفه، كانت له زوجتان ورأيتها. ولا امتياز للصلبة عن غيرهم من قبائل البادية، الا بصيد المها والغزلان ببنادق طو يلة من الطراز الأعتق، واعتادوا، لوفرة جلود الغزلان لديهم، أن يخيطوا من الجلود جلابيب «جلابيات» يلبسونها، فتقيهم حمّارة القيظ وصبّارة الشتاء، و يتخذون من جلود المها نعالا متينة جدا، ابتعت منها نعلا بر يال مجيدي. وقد علمت من البدو أن لكل قبيلة لهجة خاصة بها، وأن البدو يعرفون الصلبة بلهجتهم الفارقة، كما يعرفون الرو يلي، والشمري كليهما بلهجته، ويميزون بها بين الصخري، والسرحاني والشراري، كما يميز الحضري بين الشامية والمصر ية والمغر بية.

وهم موزعون في كل البادية، و يقيمون زرافات قليلة في أما كن مختلفة الا أنهم كثيرون لم يحص عددهم بالتحقيق. وأما قول الاستاذ: «لا يعتمدون على اقتناء الابل والخيل، بل عندهم الا تن ينقلون عليها بيوتهم اذا أرادوا الرحيل» فأظن انه لا ير يد بهذه الجملة سوى الصلبة النازلين في الشامية قرب الفرات، والا فان الصلبة الذين يجتابون أجواز الفلا الى دومة الجندل ونجد، يقتنون الابل الجيدة، و ينتفعون بها انتفاع سائر البدو. ولا أزال اذكر اسم بعيري الذي امتطيته من سكاكة الى العراق، وهو جنيف الآتي ذكره، فانه بعير صليبي. وهم كما يقول الأستاذ: «حيث حلوا في مأمن من غزوات البدو لأنهم في صلح مع الجميع».

ومن عرف طبائع البدو لا يسلم بأن شرذمة من الصليبيين تلوذ ببادية الشام فرارا من فتك العرب الذائدين عن حياضهم، وهي غر يبة عن البادية، جاهلة بمفاوزها، ومظامئها،

ولو فعلوا ذلك لمات هؤلاء الصليبيون جوعا وعطشا ان سلموا من اعتداء البدو والايقاع بهم، لانهم بعيدون عن البدو بلغتهم وعاداتهم ودينهم. ولو أظهروا الاسلام في البادية لأظهروه في مدن سورية الحضرية، وخلصوا من عنجهية البدوية وشظف العيش فيها. فيحتمل انهم طلقاء موالي الأيوبيين أو احدى الدول العربية، جمعوا بعد العتق اشتاتهم في بادية الشام وغيرها، وعاشوا عيشة القبائل الرحل[1]. وقد كان لبني أمية وبني العباس من الموالي خلق كثير. ولا تزال في أيامنا هذه قبيلة كبيرة مشهورة بالجمال نازلة بين حماة وحلب، يقال لها «الموالي».

---

١ — أولعلهم بقية لاحدى قبائل العرب البائدة كما سبق ان ذكر بخصوص الشرارات.

الفهـــــارس

١ - الاعلام والقبائل والاقوام

* * * * * *

الفاظ الحضارة

ثبت المحتويــــات

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
١٩٨٥/١/١٢

يطلب من
المحقق عمان ص. ب ٦٣٠٢٢٤
ومكتبة الكتاني باربد

مطابع دار الشعب